جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس

علي الجزنائي

تحقيق
عبد الوهاب ابن منصور
مؤرخ المملكة
عضو أكاديمية المملكة المغربية

الطبعة الثانية
1411 هـ . 1991 م

المطبعة الملكية . الرباط

علي الجزنائي

جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس

تحقيق
عبد الوهاب ابن منصور
مؤرخ المملكة
عضو أكاديمية المملكة المغربية

الطبعة الثانية
1411 هـ - 1991 م

المطبعة الملكية - الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمدُ لله الذي جعلَ الحمدَ فاتحةَ الكتاب ، وأوّل كلام الخلق يومَ الحساب ، وآخرَ دعوى أهل الثواب ، وصلى الله على سيدنا محمد المختار من لباب اللباب ، والرضا عن آله وصحبه فأكرمْ بهم من آل وأصحاب ، ومدَّ الله أيامَ هذه الوزارة السنية العمرية (1) ما تكررت السنونَ والأحقاب .

وبعدُ فإنه لما كان ـ من شيم سيدنا الوزير السعيد ، الميمون الموفق السديد ، المبارك الحميد ، الأعظم الأكرم ، الأثير الأفخم ، الأسعد الأضخم ، الفارس البطل الشجاع الأحما ، الهمام الطاهر الأسما ، أبو علي (2) بن سيدنا الوزير الكبير الشهير الجليل قدره الجميل أبو محمد عبد الله (3) بن علي بن سعيد الياباني الذي سارَ مسيرَ الشمس ذكرُه ، وجلا في الآفاق والأسماع ثناؤه الجميل وشكرُه ، وامتدتْ أبصارُ ذوي البصائر إلى الوقت السعيد الذي (4)

---

1) نسبة إلى الوزير عمرَ الياباني المؤلف له الكتاب.

2) كنية كل من تسمى بالحسن ، وهذه الكنية توهم أن اسم الوزير المؤلَف له الكتاب ـ الحسن ، والحقيقة ان اسمه عمر ، انظر التقديم .

3) كان وزيراً للسلطان أبي عنان ظ روضة النسرين ص. 28 . وانظر أيضاً (المسند الصحيح الحسن) .

4) من هنا تبدأ نسخة جلى زهرة الآس المحفوظة بخزانة القصر الملكي بالرباط تحت نمر ؤ 5100 .

تجلّي فيه بدرُه - تعرفُ (5) تواريخ الدول ، وأخبارِ الصدورِ الأوّل ، أردتُ أن أطالعَ وزارته السنية ، وسياستَه اليابانيةَ الحفصية (6) أسعدَ الله أعصارها، وكثر أعوانها وأنصارَها ، بكتاب مختصر يشتمل على ذكر مَن أسسَ مدينةَ فاس كلأها الله تعالى من الأدارسة الحسنيين ، وبناء جامعيْ القرويين والأندلسيين ، يكونُ تذكرةً لمَن تقدمَ له في ذلك سلوك ، وتبصرةً لمَن أقيمَ في خدمة الوزراء والملوك ، بعدَ أن استخرتُ الله سبحانه في ذلك ، فألهمه الي ، وسهله تبارك وتعالى علي ، كل ذلك بتيسير الله تعالى وبركةِ هذه الوزارة الكريمة التي سرتْ الرفاقُ في الآفاقِ بمناقبها العظيمة ، وأنها أعزها الله لَلوزارةُ التي أنجزت لها العناية الربانية صادق موعودها ، وأطلعت أهلة السعادة في أسعد بروج سعودها، وعلت بأبي عليّها فصارَ كلّ أيام سنيها سناءً وشهرة كعيدها ، وألقت وزارتُه السعيدةُ بيده الكريمة مقاليدَها، ورفعت إليه أحاديثها الحسنة وصححت أسانيدَها ، وجرَّت السعادةُ أذيالَها ، وأجرت في ميدان الأفراحِ خيولَ الاقتراح فمدت مداها فيه ومجالَها ، وأبدتْ عليه غررها وحجولَها حين أجالها ، فما ونى عن مكارم الأخلاق ولا لها ، فلم تلكُ تصلحُ إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها ، وكيف لا وقدْ اشتملَ أعزّه الله على الفضل العظيم، والحسب الصميم، وحازَ من الفضائل أشرفَ المناصب ، ومن النسب العريق ما لاح به قمراً منيراً في أرقى أفُقِ المناسب ، وكان في طيِّ هذه الوزارة الميمونة من ألطاف الله الخفية ، وصنائعه الحفية ، ما ظهرت أسراره ، وبهرت أنواره ، وعلمَ العبادُ أن عنايةَ الله بهم غير مقطوعة ، وأياديَه غير ممنوعة ، وأعطاه الله تعالى من الحلم والنباهة والمهابة والشجاعة والحنان ، ما صارتْ به تضربُ الأمثالُ وتسيرُ بحديثه الحسنِ الصحيح السيارةُ والركبان ، ولديْه أعزه الله تعالى من الصفات العزيزة التكر، الدالةِ على علوِّ الهمةِ وشرفِ القدر ، ما يكاثرُ عددَ القطر ، ولا يدخل تحت العدِّ والحصر :

له هممٌ لا منتهى لكبارهـا وهمتُه الصغرى أجلُّ من الدهر

5) اسمُ فاعل كان الواردةِ في أول الجملة .

6) اليابانية نسبة إلى بني يابان بن كرماط بن مرين احدى قبائل بني مرين ، وأفخاذ هذه القبيلة هي : بنو علي ، وبنو عيسى ، وبنو ورنكال ، وبنو تاشفين ، وبنو عزم، وبنو خلفي . والحفصية نسبة الى أبي حفص كنية الوزير عمر بن عبد الله الياباني المؤلف برسمه الكتاب .

والله تعالى يُعلي مقداره ، ويكتبُ في الصالحات آثاره ، ولكل ذي نجوى وسيلة يقدمُها بين يديْ نجواه ، وخدمة يصدق بها عند الاختبار دعواه ، فقدمتُ بين يديْ نجواي هذه الخدمةَ بهذا الكتاب ، وأعددتُه وسيلةً نافعة ان شاء الله لحصول الطلاب ، والله يجعلُ موقعَ ذلك من هذه الوزارة السعيدة الموقعَ الذي تجلَى فائدتُه ، وتحمدُ ان شاء الله عاقبتُه .

ويحتوي هذا المختصرُ على بابين ، والله يعصمُ من الزيغ والمَيْن :

الباب الأول في ذكر مَن أسَّسها من الأدارسة الحسنيين ، وما جاء من الثناء عليها وعلى سكانِها عن العلماء المرضيين .

الباب الثاني في ذكر مَن أدارها بالأسوار وزادَ فيها الزيادات ، وذكر جامعَيْها العتيقَيْن وما انتهتْ إليه من الدورِ والأرحى والحمامات .

الباب الأول

في ذكر مَن أسَّسها من الأدارسة الحسنيين
وما جاء من الثناء عليها وعلى سكانها من العلماء المرضيين

هذا البابُ يستدعي الكلام على فضل الإقليم التي هيَ فيه وحدِّ أصقاعيه وحكمِ أرضِه وأولِ مَن افتتحه . وسببِ قدوم وليِّ الله وابن رسول الله ادريس اليه ، وذكرِ عقِبِه الذين أسسوا فاساً واستولوا عليها ، إلى غير ذلك مما يتعلق به من التنبيه عليه ، والتذكير بما انضاف من الأمور إليه .

أما فضلُه فقد رويَ عن سفيان بن عيينة (7) عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان بالمغرب باباً للتوبة مفتوحاً مسيرتُه أربعون خريفاً لا يغلقه الله تعالى حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها . نقله ابن الرقيق (8) وغيره .

وفي المصنفات الصحاح من رواية سعد بن أبي وقاص (9) وغيره أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على

---

7) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي محدث الحرم المكي ، ولد بالكوفة عام 107 وكان حافظاً ثقة واسع العلم حتى قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علمُ الحجاز وحج سبعين سنة ، وتوفي عام 198 .

8) ابراهيم بن القاسم المعروف بابن الرقيق من أهل القيروان ، مؤرخ أديب ، كان يلي كتابة الحضرة في الدولة الصنهاجية ودام فيها نحو نصف قرن ، ورحل الى مصر سنة 388 يحمل هدية من باديس بن زيري الى الحاكم ، وعادَ الى وطنه فتوفيَ فيه على الأرجح ، وصفه ابن رشيق في (العمدة) وقال عنه ابن خلدون في مقدمة تاريخه : مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده الا مقلد ، وأورد ياقوت في (معجم الأدباء) أسماءَ كتبه ، ومنها (تاريخ افريقيا والمغرب) في عدة مجلدات ، توفيَ عام 417 هـ .

9) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري الصحابي الجليل ، والقائد البطل الشهير ، فاتح العراق ومدائن كسرى واحد الستة الذين عينهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة ، أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . ولد بمكة سنة 23 قبل الهجرة ، وأسْلمَ وهوَ ابن سبع عشرة سنة ، وشهدَ بدراً وافتتح القادسية . توفيَ بالمدينة سنة 55 هـ .

الحق حتى تقومَ الساعة . ومن طريقٍ آخر لا يضرُّهم مَن خالفهم أو خذلهم حتى تقومَ الساعة .

وأهلُ الغرب همْ أهلُ المغرب الذي هوَ ضدُّ المشرق على أصح التأويلات وأوضح الدلالات .

وحقيقةُ المغرب هوَ المكان الواقع في شِقِّ الغرب ، قال أحدُ الشعراء :

الغربُ شيءٌ مليح ولـي دليـلٌ عليـه
البدرُ يرقُبُ منـه والشمسُ تجري إليه

وحكى ابنُ جلجل (10) في (**طبقات الأطباء**) ان ملكَ اليونانيين كتبَ إلى عامله بأرض بابل (11) أن يبعثَ اليه بأبقراط (12) الحكيم ، بتبجيل وتكريم ، وأمره أن يدفعَ اليه جملةً من قناطير الذهب لينقلَه من الأرض التي بها مقامه الى بلاد اليونانيين ، فأبى أبقراط من ذلك وامتنع ، وما ذلك إلا لفضل إقليمه على غيره ، وأرضُ بابل من الاقليم الرابع الذي فاس منه .

وحكى البرنسي (13) في كتاب (**المغرب**) له عن الجَرْجرائي وزير الظاهر لإعزاز دين الله ، أحدِ ملوك العبيديين ، أن الظاهرَ قال لوزيره :

---

10) في نسخة الخزانة العامة بالرباط ونسخة دار الكتب المصرية : ابن عجلان ، والصواب انه ابن جلجل ، وهو ابو داود سليمان بن حسان بن جلجل الطبيب الأندلسي ، كان في أيام هشام المؤيد الأموي ، وخدمه بالطب ، وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة ، وقد فسرها من كتاب ديسقوريدس للعين زربي ، وأفصح عن مكنونها ، وأوضح مستغلق مضمونها ، ألف كتباً كثيرة منها كتاب يتضمن ذكر شيء من أخبار الأطباء والفلاسفة ألفه لهشام بن الحكم ، فلعله هو الذي يشير إليه الجزنائي .

11) مدينة ودولة ذات حضارة قديمة ازدهرت في وادي الفرات الأوسط أطلق العرب عليها اسم (أرض بابل) يتردد اسمها كثيراً في كتب الجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، وذكرت في القرآن الكريم في قصة الملكين هاروت وماروت ، واشتهرت بحياة البذخ التي كان يحياها أهلها حتى رويت في ذلك الأساطير . يروى ان آدم نزل بها عند خروجه من الجنة ، وان نوحاً سكنها عندما انحسرَ الطوفانُ ومنها تفرق أبناؤه و (تبلبلت) ألسنتهم ، وهاجر اليها ابراهيم الخليل ، وفيها تزوج ودعا ملكها الى عبادة الله . ومن أشهر ملوكها بختنصر الذي حكمها زهاء نصف قرن .

12) او بقراط ، ويعرف بأبي الطب ، طبيب يوناني وعالم طبيعي ولد بجزيرة كوس عام 460 ق. م.

13) محمد بن حماد البرنسي السبتي من أهل القرن السادس الهجري ، والمعروف ان كتابه اسمه (المقتبس ، في أخبار المغرب وفاس والأندلس) وليس (المغرب) كما ذكر المؤلف.

اني أريدُ أن أسمعَ كلامَ المغاربة ، فقال له : هنا شيخٌ يعرف بأبي مسلم الدقي، فقال له : أسمعني كلامه ، فجلسَ الظاهرُ خلفَ حجاب وأحضر وزراء دولته، ووجه عن الدقي ، فلما وصلَ سلمَ وقعدَ وتكلمَ معه بأشياء أضحكه بها إلى أن قال له الوزير : بلغنا أن الدنيا شُبهتْ بطائر ، فالمشرقُ رأسُه ، واليمنُ جناحُه الواحد ، والشامُ جناحُه الآخر ، والمغربُ ذنبُه . فقال له أبو مسلم : صدقوا والطائرُ طاووس ! فضحِك الظاهرُ وقال حسبُه وانصرف .

وأول بلاد المغرب على ما حكاه صاحب **جغرافيا** جبالُ برقة وجبال عاوتان في المشرق ، وهذه الجبال آخرُ عمل مصر ، وأولُ عمل القيروان ، وينقسم المغرب على ثلاثة أصقاع :

الصقع الأول هو موضع افريقية من جبال برقة وعاوتان الى جبال نفوســـة .

والصقع الثاني المغربُ المتوسط وأولُه تاهرت الى سبتة الى جبـل درن .

والصقع الثالث السوس الأقصا ، وحــدُّه في الغرب البحر الأعظم من ماسَّة الى صحراء المرابطين .

وهذا الاقليمُ الرابعُ هوَ الأوسطُ من الأقاليم السبعة التي رسمها حكماءُ الهند ، وهو أعمرُها ، وفيه أرضُ بابل ، وجزيرةُ العرب ، وبقيةُ بلاد البربر في أقصا الغرب ، وبعض مدن جزيرة الأندلس كإشبيلية وقرطبة وغرناطة . والمرية ومرسية ، وفيه بغداد ، فلاعتداله اعتدلتْ أبدانُ أهله ، فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبش ، وغلظِ الترك ، وجفاءِ أهل الجبال ، ودَمامة أهل الصين ، وكما اعتدلوا في الخلقة اعتدلوا في الفطنة والذكاء والعلم ، ذكر ذلك صاحب **(المدهش)** وغيره .

وهذا الاقليمُ عند الحكماء كريمُ البقعة ، طيبُ التربة ، مخصبُ القاعة ، كثيرُ العيون والأنهار العذاب ، قليلُ الهوام ذواتِ السموم ، معتدلُ الهواء في الفصول الأربعة على قدر متقارب من الاعتدال ، تتصلُ فوائده وفواكهه في كل الأزمنة .

وأما حكمُ أرضه فقال أبو الحسن ابنِ القابسي (14) في (**شرح موطأ مالك**) رحمه الله من كتاب الجهاد : اختلف الناس في أرض المغرب هل افتتحت عنوةً أو صلحا أو مختلطة على ثلاثة أقوال : الأول الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة ، لأنه جعلَ في المعادنِ النظرَ للإمام ، ولو صحَّ ذلك لم يجزْ لأحد بيعُ شيء منها كأرضِ مصر وطنجة لأنها افتتحتْ بالسيف ، الثاني قيل صلحاً صالحوا عليها أهلَها ، فان كان كذلك جازَ بيعُ بعضهم من بعض . الثالث قيل انها مختلطة هربَ بعضُهم عن بعض فتركوها ، فمَن بقيَ بيده شيء كان له ، وهوَ الصحيح ، والله أعلم .

وقال الداودي في كتاب **(الأموال)** له بعد بسط كلام في ذلك أن الذي يوجبه النظرُ فيها أن تجريَ على ما توالت عليه القرونُ الماضيةُ في أمرها ، وتقر بأيدي مالكيها إلا ما تواترت فيه الأخبارُ أنه اغتصب أو جلا عنه أهلُه .

وقال التادلي الحافظ : إن أرضَ المغرب أسلمَ عليها أهلُها .

ويحكى أن أحدَ عمال المنصورِ بن أبي عامر حينَ تغلبَ على أرضِ فاس قال لهم : أخبروني عن أرضكم أصلحٌ هيَ أم عنوة ؟ فقالوا له لا جوابَ عندنا حتى يأتيَ الشيخ ، يعنون أبا جيدة ابن أحمد اليزغتني (15) ، فجاء أبو جيدة فسأله فقال ليستْ بصلح ولا عنوة ، إنما أسلمَ أهلُها عليْها . فقالَ لهم خلَّصكم الرجل ! .

وأبو جيدة هو المدفونُ بخارج باب بني مسافر (16) أحدِ أبواب مدينة فاسٍ ، والدعاءُ عند قبره مستجاب (17) ، وله نفع الله به كراماتٌ مَن أراد الوقوف عليها فليطالع كتاب **(المستفاد، في ذكر الصالحين من فاس والعباد)**

---

14) علي بن محمد بن خلف المعافري أبو الحسن المعروف بابن القابسي ، أحد أعلام مذهب مالك، كان واسع الرواية ، عالماً بالحديث وعلله ورجاله ، فقيهاً أصولياً متكلماً مؤلفا مجيداً ، وكان أهلُ القيروان يفضلونه ويأخذون عنه ، وهوَ من شيوخ أبي عمران الفاسي ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب (ملخص الموطأ)، تُوفي بالقيروان سنة 403 وقد بلغ الثمانين ودفن بباب تونس .

15) انظر ترجمته في **سلوة الأنفاس** 3 : 92 .

16) هو البابُ المعروف اليوم بباب سيدي بوجيدة .

17) تعتقدُ النساء بالخصوص أن المرأةَ التي تخلصُ النيةَ والخدمة لهذا الصالح يطيعها زوجُها ، حتى صارَ يقال بفاس عن كل مَن يسمعُ كلام زوجه ويعمل برأيها إنه يخدمُ سيدي بوجيدة . ولهذا نجدُ أن أكثرَ الداعيات عند قبره من النساء !.

الذي ألفه الشيخُ الروايةُ محمد بن عبد الكريم الفنذلاوي المعروف بالكتاني (18) .

واما سببُ نزول البربر في أرض المغرب من أرض فلسطين من الشام ، فإن ملكها جالوت لما قتله داوودُ عليه السلام جلت البربرُ إلى المغرب فتفرقتْ في تلك البلاد من موضع القيروان إلى ساحل البحر الأندلسي ، وكانت هذه البلادُ قبل البربر للروم ، فجلت الرومُ أمامهم إلى صقلية ، وهي جزيرة عظيمة في البحر تحاذي بلادَ افريقية ، ثم رجع الأفارقةُ من الروم الى مدائنهم على صلح من البربر ، اذ كرهت البربرُ نزولَ المدائن ، فنزلوا الجبال والرمال والوهاد ، لكونهم أصحابَ إبل وغنم وبقر ، وسكانَ بيوت أدم وشعر ، فعادت المدن رومية ، والجبالُ والصحاري بربرية ، وهم يومئذ على أديان مختلفة .

ثم بعدَ مبعث النبيِّ صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضيَ الله عنهم ، وصدر من دولة بني أمية ، ولّى يزيدُ بن معاوية منهم عقبةَ بنَ نافع الفهري (19) على بلادَ المغرب في سنة اثنتيْن وستين من الهجرة ، واستفتحَ بعضَه إلى أن بلغَ البحرَ الأعظمَ حيث ماسة (20) وأدخل فيه قوائمَ

---

18) ترجمه ابن القاضي في جذوة الاقتباس ص 137 وذكر أنه توفي في العشر الأواسط من ذي الحجة سنة 595 ودفن خارج باب عجيسة . اما الكتابُ فاسمه الكامل (**المستفاد ، في مناقب الصالحين والعباد ، من أهل مدينة فاس وما والاها من البلاد**) ، انظر ما وردَ من الخلاف في نسبِ المؤلف ووفاتِه في دليل مؤرخ المغرب الاقصا 1 : 61 .

19) عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري فاتح المغرب الشهير ، وأحد كبار القادة في صدر الاسلام ، ولد في حياة النبي (ص) قبل الهجرة بسنة ، ولا صحبة له ، وشهد فتحَ مصر ، وكان ابنَ خالة عمرو بن العاص ، فوجهه الى افريقية سنة 42 هـ والياً ، فافتتح كثيراً من تخوم السودان وكورها في طريقه ، فولاه معاويةُ افريقيةَ استقلالا سنة 50 هـ فأوغل فيها حتى اتى واديَ القيروان فأعجبه فبنى فيه مسجده ثم شرع في بناء المدينة ، وعزله معاوية سنة 55 فعاد الى المشرق ، ثم أعاده يزيدُ بن معاويةَ الى الولاية سنة 62 وهي التي يشيرُ اليها الجزنائي. فخرجَ منها بجيش كثيف فتحَ به حصوناً ومدناً كثيرة بغزان والزلب وتاهرت ، ثم تقدم الى المغرب الأقصا ففتحه حتى بلغَ البحرَ المحيط ، ثم عاد الى القيروان فلما كان بتهودة - وكان في عدد قليل من جنده - طمع به خصومه من بربر وروم فأطبقوا عليه وقتلوه ومَن معه بها سنة 63 هـ .

20) اسم لمدينة عتيقة اندثرت اليومَ كانت تقع جنوب أجَدير من اقليم سوس ، ولم يبقَ يذكر بها الا النهرُ المسمى باسمها والمنحدر اليها من الجبال الواقعة الى الجنوب والى الشرق منها ، وعلى مصب هذا النهر بالمحيط الأطلسي يوجدُ رباط مقدس يسميه السكان سيدي رباط . ولعله يوجد في المكان الذي كانت توجد فيه مدينة ماسة . وقد وصفه صاحب (**الاستبصار**) هذا الرباطَ بأنه مقصود وله موسم عظيم ومجتمع جليل وهو مأوى للصالحين ، ويعتقدُ سكان تلك الجهة أن الحوتَ ألقى النبيَّ يونسَ بمصب نهر ماسة ، وان من تلك الجهة يخرج المسيح الدجال ويظهرُ المهدي المنتظر . وعلى ضفة هذا الوادي تسكن اليوم قبيلة أهل ماسة الصغيرة التي لا يتجاوز عدد سكانها العشرة الاف .

فرسِه (21) ثم جعلَ يقول : وعليكم السلام ، فقالَ له أصحابه : على مَن تسلم ياولِّي الله ؟ فقالَ لهم : ان قومَ يونس عليه السلام سلموا عليَّ فسلمتُ عليهم ، ولولا البحرُ لأريتكم إياهم ، وأسلم إذ ذاك على يديْه بعضُ مَن بالمغرب، وحينَ رجعَ منه ارتدَّ بعضُ مَن أسلم . ثم ولى الوليدُ بن عبد الملك بن مروان بن الحكم - موسى بنَ نصير (22) على المغرب أيضاً في سنة اثنين وتسعين، وسارَ فيه حتى بلغَ طنجة وسبتة ، وجازَ لبرِّ الأندلس ، واستفتحه مع مولاه طارق بن زياد (23) وأسلمَ على يديْه أيضاً بعضُ مَن بالمغرب ، وحينَ رجع منه ارتدَّ أيضاً بعضُ مَن أسلم ، الى أن أرادَ الله ظهورَ الاسلام في سائر أقطار المغرب حتى لم يبقَ منه موضعٌ إلا وعُبِدَ الله فيه بسبب قدوم وليِّ الله وابن رسوله الصالح ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كذا استقرىء من كلام البكري (24) وغيره .

---

21) في الاستقصا 1 : 82 ان ذلك كان بساحل آسفي .

22) موسى بن نصير بن عبد الرحمان بن زيد اللخمي بالولاء ، أصله من وادي القرى بالحجاز ، ولد سنة 19 هـ وكان أبوه نصير على حرس معاوية ، ونشأ موسى بدمشق ، وولي غزوَ البحر لمعاوية ، فغزا قبرس وبنى بها حصوناً ولما آلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك ولاه افريقية وما وراءها من بلاد المغرب سنة 88 هـ فاستقرَّ بالقيروان ، وبعث أبناءه لتمهيد البلاد ، وولى طارقا مولاه طنجة ، وكان فتحها وأسلمَ أهلها ، ثم أمره بغزو الأندلس فافتتحها ولحق به موسى وقد داخلته منه غيرة ، فأتم فتح الأندلس ، ثم استقدم الخليفة الوليد موسى سنة 96 هـ فذهب الى دمشق والوليد في مرض موته ، فلما ولي سليمانُ استبقاه عنده ، وقيل نكبه وعزله ، ومات موسى سنة 97 وكان شجاعاً عاقلا كريما تقيا .

23) طارق بن زياد الليثي بالولاء ، فاتح الأندلس الشهير ، أسلمَ على يدي موسى بن نصير ، فكان من أشد رجاله . ولما فتح موسى طنجة ولاه عليها سنة 89 هـ فأقام فيها الى سنة 92 ثم غزا الأندلس على رأس جيش يتألف من نحو 12000 مقاتل ، معظمهم من البربر ، فعبرَ المضيقَ المنسوبُ إليه الفاصل بين المغرب واسبانيا ، ونزل البرُّ المقابلَ واحرق سفنه وخطب في جنوده خطابه الشهير ، ثم تغلغل في داخل الأندلس ، واستولى على كثير من معاقلها وحواضرها ، كاشبيلية وقرطبة وطليطلة ، وبعد ذلك لحقَ به موسى بنُ نصير الذي يظهرُ أنه غار مما فتح الله عليه ، فعاقبه بالعزل من القيادة ، ثم أصلح الخليفةُ الوليدُ بنُ عبد الملك ذاتَ بينهما فعاد طارق الى الغزو ، فافتتح طرطوشة وسرقسطة ودانية وبلنسية وشاطبة ، ثم استدعاه الوليدُ الى الشام فقصده مع موسى سنة 96 . وأقوالُ المؤرخين مضطربةٌ في خاتمة أعماله ، ولد حوالي سنة 50 هـ وتوفِّي سنة 102 هـ .

24) أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري نسبة إلى بكر بن وائل ، مؤرخ جغرافي أندلسي ، عالم بالأدب والنبات ولد في شلطيش غربي اشبيلية ، ثم انتقل الى قرطبة ، ثم صار الى المرية ، ثم عادَ إلى قرطبة بعد استيلاء المرابطين على الأندلس ، وبها توفي سنة 487 عن سن عاليةٍ ، له مؤلفات كثيرة ، منها كتاب (المسالك والممالك) الذي طبع الجزء المتعلقُ منه بالمغرب تحت اسم (المغرب في ذكر افريقيا والمغرب) و (معجم ما استعجم) في أربعة أجزاء ، و (أعلام النبوءة) و (شرح الامالي) لأبي علي القالي و (أعيان النبات) الخ .

وكانَ سببُ قدوم وليِّ الله الصالح ادريس من المشرق الى المغرب على ما حكاه محمد بن جرير الطبري (25) وغيره أن اسحاقَ بنَ عيسى الأميرَ بالمدينة وفدَ على الخليفة موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور واستخلف عليها محمد بنَ عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فظهرَ منه مخالفة في أحكامه ، فغيرَ ذلك عليه الحسينُ بنُ علي بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورفضَ الناسُ امرتَه ، واستدعوا حسينا للبيعة ، فجلسَ على المنبر وعليه عمامةٌ بيضاء ، وكان الناسُ يأتونه ويبايعونه على كتابِ الله وسنة نبيِّه عليه السلام ، وجاءَ خالد البربري في مئتين من الجند فقاتلَ الحسين ، فقامَ إليه أبناءُ عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهما يحيى وادريس فضربَه يحيى على أنف البيضة فقطعها وقطع أنفَه ، فشرِقَتْ عيناه بالدم فلم يُبصر ، فنزلَ وجعلَ يدبُّ بسيفه عن نفسه وهو لا يُبصر ، واستدارَ له إدريسُ من خلفه فضربه وصرعه ، وعلواه بأسيافهما حتى قتلاه ، ثم قاتلَ بالمدينة شيعةَ بني العباس وجاء برمك التركي فأغاثهم ثم تركهم ، وأقامَ حسينٌ بالمدينة أحدَ عشر يوماً وأصحابُه بالمسجد فغدروه ولحقَ بمكة ، وكان وفدَ للحج في تلك السنة محمد بنُ سليمان بنِ علي بنِ محمد بن عبد الله بنِ العباس ، والعباس بن محمد بن علي ، وموسى بن عيسى في أربعة آلاف فارس ، وعلى الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور ، فأتوا ذا طُوى (26) وقد ورد كتابُ الهادي بتولية محمد بن سليمان الحرب ، فوجهَ محمد ابا كامل مولى اسماعيل بن علي ، فلما راى القوم صار معهم فظفرَ به فقتل ، ثم قاتلَ محمد بن سليمان الحسينَ فهزمه وقتله ، وقتلَ أكثرَ مَن كان معه ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتْ لحومَهم الطيرُ والسباع . وكان ذلك بفخّ ، وهو موضعٌ فيه مويةٌ (27) على مسيرة ثلاثة أميال من مكة شرَّفها الله تعالى ، وكانت هذه الوقيعةُ في يوم السبت،

---

25) محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المؤرخ المفسر الامام ، ولد في آمل طبرستان عام 224 واستوطن بغداد وتوفيَ بها عام 310 ، وعرض عليه القضاءُ فامتنع ، له (**أخبار الرسل والملوك**) ـروفُ بتاريخ الطبري ، و (**جامع البيان ، في تفسير القرآن**) المعروفُ بتفسير الطبري وغيرهما ، ـ من ثقات المؤرخين .

26) وادٍ قربَ مكة يستحبُ للداخل اليها أن يغتسلَ فيه .

27) تصغير مـاء .

وصادفتْ يومَ التروية الثامنَ لشهر ذي الحجة من سنة تسع وستين ومئة (28) . وحضرت الوفاة بعد محمد بن سليمان قاتل حسين ، فجعلَ جلساؤه يلقنونه الشهادةَ وهوَ يقـول :

ألا ليتَ أمي لم تلدْني ولمْ أكنْ ... لَقِيتُ بفخٍّ لا حسيناً ولا حسن

وفي هذه الوقيعةَ أفلتَ ادريسُ بنُ عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضيَ الله عنه على ما حكاه المظفري ، وأنشدَ في ذلك بعض شعراء الوقت :

فلأبكينَّ على الحسينِ بعـ ... ـولـةٍ وعلـى الحسـن
وعلى ابن عاتكةَ (29) الذي ... تركـوه لـيس بـذي كَفَـن
تركـوا بفـخ غـدوةً ... فـي غيـر منزلـة الوطـن
كانـوا كرامـاً قتلـوا ... لا طائشيـن ولا جبـن
غسلـوا المذلـةَ بعهدهـم ... غسلَ الثيـاب مـن الـدرن
هُـدِيَ العبـادُ بجدهـم ... فلهـم علـى النـاس المنـن

وصارَ ادريسُ رضيّ الله عنه مع مولاه راشد (30) الى مصر وعلى بريدها واضحٌ مولى صالح بن المنصور ، فحمله على البريد إلى

---

28) الذي عند ابن أبي زرع في (**الأنيس المطرب بروض القرطاس**) ان الذي ثار على بني العباس وقتل بفخ هو الامام محمد النفس الزكية أخو الامام ادريس الأول ، وتبعه في ذلك مَن قلده من مؤرخي المغرب كابن الخطيب وابن خلدون ، اما رواية الجزنائي المنقولة عن الطبري فهيّ رواية الامام يوسف سبط ابن الجوزي في كتاب (**تذكرة الخواص**) والحافظ محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني في (**نظم الدر والعقيان**) ، والحلبي في (**الدر النفيس**) ، وقد أخطأ ابنُ أبي زرع في اسم الخليفة العباسي الذي جرت الوقيعة في أيامه .

29) هي عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة زوج الإمام عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ، ووالدة الإمام ادريس الأول وأخويه سليمان وعيسى ، وصفوها بأنها كانتْ صوامة قوامة جميلة .

30) راشد بن منصة الاوربي مولى الامام ادريس الأول ، اختلفَ في أصله ، فقيل من العرب المولدين ، وقيل حبشي ، وقيل انه بربري من قبيلة ورية (أوربة) سبيَ مع أبيه منصة في غزو موسى بن نصير ونقل معه الى المشرق . وهو الذي قام بأمر الدولة بعد وفاة سيده وكفل الامامَ إدريس الثاني الى أن شبَّ وترعرع ، وكان بطلا شجاعا ، وقائداً محنكاً ، وسياسياً ماهراً ، توفيَ سنة 186 ودفن بالقرب من ضريح الامام ادريس بجبل زرهون في الجهة الجنوبية يمين الخارج للمزارة العليا من الجامع الكبير هنـاك .

الغرب ، فوقعَ بحومة بلاد طنجة ، ثم الى بلد وليلة (31) قاعدة زرهون ، واستجابت له قبائل البربر ، وعلا امره وشاع خبرُه ، وهذه البلدةُ قديمة البناء، يذكر أنها من بناء القبط ، وهي المعروفةُ الآن بقصر فرعون، من أرض اولاد تعلو الأوربيين ، وهَي متوسطةٌ بين العمارات ، خصيبة كثيرةُ المياه والغروس والزيتون ، وكان لها سور عظيم قد بَقَي بعضُه، وفيه عبرة للمعتبرين.

ولما وصلَ إدريسُ رضيَ اللهُ عنه الى بلد وليلة نزل على صاحبها إسحاق (32) بن محمد بنُ عبد الحميد الأوْرَبي ، فأقبلَ عليه وأكرمه وبالغَ في بِره، وكان نزولُ إدريس رضي الله عنه بوليلة في أول شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومئة. فأقامَ عنده والناس يفدون عليه إلى أن دخلَ شهرُ رمضان السنة، فبايعه جميعُ قبائل البربر، ولما تمّتْ له البيعةُ وتمكن سلطانُه وعلا شأنه اتخذَ جيشاً عظيماً من قبائل البربر، وخرجَ بهم الى بلاد تامسنا (33)

---

31) في الأصل وليلي ، وهيَ مدينة عتيقة واقعة في السفح الجنوبي لجبل زرهون ، على بعد 28 كلم من شمالي مكناس ، يظن بعض المغاربة - كما ذكر ذلك المؤلف - انها من بناء القبط حتى سموها قصر فرعون ، والحقيقة ان مؤسسيها الأولين غير معروفين ، ولكنها كانت معروفة قبل مجيء الرومان الى المغرب ، وكانتْ من عواصم الملك البربري جوبا الثاني (25 ق . م 23 أو 24 ب . م) ملك موريتانيا ، وبعد الاحتلال الروماني (40 - 45 ب . م) أصبحت وليلة (فولوبيليس) حاضرة من حواضر موريتانيا التنجتينية (الطنجية) وكان يقيمُ بها الحاكم الروماني للاقليم ، ثم بدأ شأنها يضعف في نهاية القرن الثالث الميلادي بعد وفاة الإمبراطور بروبوس (276 - 281 م) ولكنها لم تخلُ نهائياً ، بل ظلت مسكونة من طرف البربر الى نهاية القرن الثامن الميلادي ، وعرفت في هذه الفترة باسم وليلة ، ومن الناس مَن يكتبها وليلى بكسر اللام أو فتحه ، ثم انتعشت قليلا عند دخول الاسلام واستقرار الامام ادريس الأول بها ، ولكنها لم تلبث أن خلت وخربت بعد انشاء ابنه الامام ادريس الثاني لمدينة فاس .

وتبلغُ مساحة وليلة أربعين هكتاراً ، ويبلغ طول السور الذي يحيط بها 2350 متراً ، يتخلله نحو 40 برجاً ، وهي الآن من أهم المشاهد الأثرية بالمغرب ، وقد أزاح الأسارى الألمان خلال الحرب العظمى الأولى التراب عن 15 هكتاراً من مساحتها ، ورممتْ مصلحةُ الآثار بعض هياكلها ، ولا يزال الطرفُ الأكبر من المدينة تحت الردم الى الآن .

32) في بعض المراجع : عبد المجيد الأوربي .

33) البسيط الممتدُ من وادي أبو رقراق الى وادي أم الربيع ، وهو بسيطُ الشاوية وما جاوره ، وقد انمحا هذا الاسم الآن ، وبقيت بعض الأسر المغربية منسوبة اليه (المسناوي) .

ففتح شالةَ (34) وسائرَ تلك الحصون ، وسارَ إلى تادلة (35) فافتتحَ حصونَها إلى أن بلغَ ماسة ، وكان أكثرُ هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية والمجوسية ، والاسلامُ بها قليل ، فأسلمَ جميعُهم على يديْه ، حتى لم يبقَ بالمغرب موضعٌ يعبد غير الله فيه ، وقد فتحَ الصحابةُ ومَن بعدهم جملةً من البلاد ، وأبادَ الله بدولة الاسلام دولةَ الفرس في العراق وخراسان ، ودولةَ الروم بالشام ، ودولةَ القبط بمصر ، وأوائل الهند ، وأقصى الأندلس ، وبلاد الترك ، وذلك مما أخبرَ الرسولُ عليه السلام أن يكون ، فإنه جاءَ في الصحيح أنه قال : زُويتْ الأرضُ فأُريتُ مشارقَها ومغاربَها ، وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زُوِيَ لي منها .

---

34) شالة : اسم حاضرة مغربية عتيقة تقع على نهر أبي رقراق غير بعيدة عن مصبه في المحيط الأطلسي حيث المدينتان التاريخيتان : سلا والرباط ، كانت في الأصل قرية بربرية ، وأنشأ بها القرطاجنيون متجراً عرف في عهدهم باسم سلفس ، ثم احتلها الرومان وسموها سَلا ـ كولونيا ، وكانت نهاية مدى ما امتد اليه نفوذهم من أرض المغرب ، واستمرت شالة مستعمرة رومانية مدة تقرب من خمسمئة عام الى أن ضعف أمر الرومان فتدهورت وخربت ، يقال أن الواندالبين هم الذين خربوها أثناء عبورهم الى المغرب ، على ما في عبورهم ومرورهم بالمغرب من ارتياب . ولما فتح عقبة بن نافع المغرب بعد سنة 62 هـ أسلم أهلها على يديه ، ثم ارتدوا بعد قتله في تهودة الى أن أسلموا مرة ثانية على يد موسى بن نصير . ثم افتتحها الامام ادريس وتداول ملكها بنوه من بعده الى أن انتزعها منهم موسى بن أبي العافية سنة 317 . وفي أواخر القرن الرابع الهجري صارت عاصمة اليفرنيين ، وخلال الحروب التي جرت بين برغواطة والمرابطين خربت شالة ، وفي هذا التاريخ زارها الجغرافي المغربي الشهير الشريف الادريسي ووصفها بأنها خراب وبها بقايا بنيان وهياكل سامية . ولما أسس الموحدون الرباط ازداد خراب شالة اذ انتقل اليه سكانها وحرفها وصنائعها ، وقد حاول المرينيون بعدهم تجديدَ بناءاتها فأداروها بأسوار وبنوا بها مدارس ومساجد واتخذوها مدفناً لملوكهم وأعيانهم ، ولكن ذلك لم يعدْ اليها الحياة . وقد ابتدأ العملُ في بداية هذا القرن ـ في رفع أنقاضها وترميم آثارها ، ثم توقف واستؤنف في السنين الأخيرة .

35) تادلة : اسم اقليم شهير بوسط المغرب ، قاعدته قصبة تادلة الواقعة على أم الربيع جنوبي خنيفرة وشمالي بني ملال لعب دوراً كبيراً في تاريخ المغرب ، اذ به كانت تمر الطريق الرابطة بين فاس ومراكش ، وبين الشمال والجنوب عبر جبال الأطلس المتوسط ، ينسب اليه كثير من العلماء والصلحاء والقادة ، وتكتب تادلة تارة بالتاء وتارة بالألف المقصورة ، (تادلا) ، فلذلك كان المنسوب اليها تادلى وتادلوى .

ولما نزل ادريسْ رضي الله عنه بخارج تلمسان (36) وأتاه أميرها محمد بن خزر المغراوي الخزري وبايعه مّن هناك من القبائل ، ودخل تلمسان ، واستقلت له امارة المغرب بأسره اتصل ذلك بالرشيد وخاف واغتم لذلك ، وخشيَ أن يتوجه لأفريقيا فيصل اليه لما يعلم من فضله وكماله ومحبة الناس في آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث اليه الرشيد من يغتاله ، واختار لذلك سليمانَ بنَ جرير البجلي (37) ، فخرج اليه من بغداد حتى وصل المغرب ، وقدمَ على ادريس بمدينة وليلة ، فسلم عليه سليمان ، وسأله ادريس عن اسمه ونسبه ومن أي البلاد قدم وما سببُ قدومه الى المغرب ؟ فذكر له أنه من بعض موالي أبيه ، وأنه اتصل به خبره فأتاه برسم خدمته لأجل محبته لأهل البيت اذ لا يعدل بهم أحد ، ولا يقاسُ بهم سواهم ، فأنسَ به ادريسْ وسكن الى قوله وسرَّ به ، فكان ادريسْ لا يقعد ولا يأكل ويشرب الا معه ، ولم يزل يرتقبُ الفرصةَ ويعمل الحيلة في قتله ، فلم يجد لذلك سبيلا لموالاة مولاه راشد الذي لا يزايله ولا يفارقه ، الى أن غاب راشد ذاتَ يوم في بعض شؤونه ، فدخل اليه سليمان فوجده وحده ، فقال له : ياسيدي جعلت فِداءك ! اني جئت من المشرق بقارورة طيب لأتطيبَ بها ، ثم اني رأيت أن الامامَ أولى بها مني ، فخذها لتتطيبَ بها ،

---

36) تلمسان : مدينة اسلامية شهيرة بغرب المغرب الأوسط (الجزائر) تبعد 138 كلم عن مرسى وهران جنوباً و 80 كلم عن وجدة شرقاً ، تقع في السفح الشمالي للجبل المنسوب اليها على ارتفاع 800 متر فوقَ سَطْحِ البَحْرِ الأبيَض . وتَنْبَسطُ أمَامها سُهول خِصبة جَيِدة التُّربة وتحيط بها الحدائق والجنات والغروس والمزارع من كل جانب ، يزعم كثير من المؤرخين انها احدى المدن السبع القديمة ، وانها مدينة الجدار المشار اليها في القرآن في قصة موسى والخضر . كانت في الأصل قرية بربرية تدعى أكُدير ، ثم احتلها الرومان وانشأوا بها معسكراً سموه (بومارية) ، ولما جاء الاسلام افتتحها أبو المهاجر دينار المخزومي سنة 55 هـ وهزم حولها الأمير البربري كسيلة البرنسي ، ثم دخلها عقبة في ولايته الثانية للمغرب ، ومر بها الامام ادريس الأول في طريقه الى المغرب الأقصى ، ومن ذلك التاريخ علا صيتها وتبحر عمرانها وازدهرت الثقافة والعلم فيها ، وأصبحت أهميتها الدينية والثقافية والسياسية بالنسبة الى المغرب الأوسط مثل أهمية فاس ومراكش بالنسبة الى المغرب الأقصى ، والقيروان وتونس بالنسبة الى المغرب الأدنى ، ولما انفرط عقد اتحاد أقطار المغرب العربي في القرن السابع الهجري على اثر ضعف أمر الموحدين بعد غزوة العقاب قصدها بنو عبد الوادي الزناتيون وانشأوا بها دولة وجعلوها عاصمة ملكهم وظلوا طوال ثلاثة قرون يتجاذبون حبل ملكها مع بني عمهم مرين ملوك المغرب الأقصى الذين أنشأوا فيها المبانيَ الرفيعة ، الى ان استولى عليها الاتراك العثمانيون عام 952 فظلت تحت حكمهم الى أن انتزعها منهم الفرنسيون في فاتح سنة 1836 الميلادية ، وبعد ذلك عمها ما عم سائر مدن القطر الجزائري وقراه من الاحتلال الفرنسي الى أن تحرر منه ونال حريته سنة 1962 .

37) ويعرف أيضاً بسليمان الشماخ ، وسماه البكري (ص 120) بسليمان بن حريز الجزري ، ووصفه بأنه كان رجلا من ربيعة ، وممن يرى رأى الزيدية ، وكان حلواً شجاعاً أحد شياطين الانس .

فقد آثرتك بها عليّ ، ثم أخرجها من وعاء ، ووضعها بين يديْ ادريس ، فأخذ ادريسُ القارورة ففتحها وشمها ، فلما راه سليمان فعل ذلك وتحصل له مراده منه وتمت حيلته ، جعل يتسلل من المجلس ، وخرج كأنه يريد قضاءَ حاجة الانسان ، فسار الى منزله وركب فرساً له من سباق الخيل كان قد أعده لذلك ، وخرج من وليلة يطلب النجاة ، وكانت القارورة مسمومة، فحين استنشق ادريسُ الطيب الذي بها صعد السمُّ في خياشيمه وانتهى الى دماغه فغشي عليه وسقط ميتاً رحمه الله ورضيّ عنه (38) ، وذلك في منسلخ شهر ربيع الاخر سنة خمس وسبعين ومئة ، فكانت أيام دولته سنتين وثمانية أشهر على ما حكاه البكري في مسالكه .

قال شاعرهم فيما حكى المظفري :

أتظنُّ يا إدريسُ أنك مفلت … كيدَ الخليفة أو يقيك فرار ؟
فليُدركنك أو تحلَّ ببلدة … لا يهتدي فيها اليك قرار
ان السيوف اذا انتضاها سخطه … طالت فقصر دونها الأعمار
ملك كأنَّ الموت يتبع أمره … حتى يقال تطيعه الأقدار

ودُفنَ ادريس رضيَ الله عنه بخارج باب وليلة (39) ، ولم يزل الناس يعتنون بزيارة قبره ، ويدعون الله في الحاجات فيستجاب لهم ، وظهر جسده بكفنه في سنة ثمان عشرة وسبعمئة ، وازدحم الناسُ عليه من سائر أقطار المغرب حتى خيفت الفتنةُ بسبب ذلك ، فبعث مولانا أمير المسلمين أبو سعيد (40) بن يعقوب بن عبد الحق تقبل الله أعماله جيشاً لتفريقهم عنه وتحسيم الفتن . كذا وقفتُ عليه في أمر سلطاني يقتضي ذلك .

ولما تُوفيَ الامامُ إدريسُ رضي الله عنه ترك جارية له مُوَلَّدَةً من بلاد البربر اسمها كنزة حاملاً في السابع من أشهر حملها ، وحين دنا وضعها ولدت ولداً ذكراً أشبه الناس بأبيه ، وذلك في رجب سنة خمس وسبعين ومئة، فسميَ باسم أبيه ، وقام راشد بأمره وأمر البربر ، وكفله الى أن فطم وشب، فأدبه أحسن أدب ، وأقرأه القرآن فحفظه وله من السن ثمانية أعوام،

---

38) اختلفت الروايات في كيفية اغتيال سليمان بن جرير للامام ادريس ، فقيل انه سمه في سنون ، وقيل في شابل ، وقيل في عنب ، وقيل في دلاح ، ورواية الجزنائي ، أشهر .

39) هذا يوقع في إشكال ، لأن قبر الامام ادريس الأول لا يوجد في وليلة ، وانما في زاوية تبعد عنها خمسة كلومترات . والصواب ما ذكره ابن أبي زرع في (**الأنيس المطرب بروض القرطاس**) - وهو متقدم على الجزنائي - من أنه دفن بقربها . ظ **القرطاس** ص 10 .

40) عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، ولد عام 675 وبويع عام 710 وتوفي عام 731 .

وعلمه السنةَ والفقهَ والشعرَ وأمثالَ العرب وحكمها ، وسيرَ الملوك وسياستَها، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكائد الحروب . ولما كمل له من السن احدى عشرة سنة أخذ له مولاه راشد البيعةَ من سائر قبائل البربر ، فبويع له بجامع مدينة وليلة في يوم الجمعة مهل شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين ومئة . فقد بان لنا من هذا أن مدة بقية حمل أمه به بعد وفاة والده ومدة كفالة راشد له عشر سنين وعشرة أشهر . وحينَ أُخذتْ له البيعةُ صعدَ المنبرَ ليخطب الناس في ذلك اليوم فكانَ مما قال :

الحمد لله أحمده وأستغفره ، وأستعين به وأتوكل عليه ، وأعوذ بالله من شر نفسي وشر ذي شر ، وأشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله الى الثقلين بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجسَ وطهرهم تطهيرا ، أيها الناس انا قد ولينا هذا الأمر الذي يُضاعَفُ للمحسن فيه الأجر ، وللمسيء الوزر ، ونحنُ والحمدُ لله على طريق قصد فلا تمدوا الأعناقَ الى غيرنا ، فان الذي تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا .

ثم دعا الناس الى بيعته ، وحضهم على التمسك بطاعة الله وطاعته ، فعجب الناسُ من فصاحته وبيانه ورصانة عقله وبلاغته ، ثم نزل فسارع الناسُ الى بيعته ، وازدحموا عليه يقبلون يديه ، فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة (41) وورية (42) ،

---

41) زناتة : جيل عظيم من البربر تنسب اليه قبائل كثيرة بأقطار المغرب وهو أشبه شعوب البربر بالشعب العربي ، وجل نسابته يرجع أصله الى العرب ، وكان المغرب الأوسط اكثر المواطن التي عمرها هذا الجيل حتى لقب بوطن زناتة . تراجع اخبار قبائله وما تقلب بعضها فيه من الملك والامارة في الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون .

42) وربة : قبيلة شهيرة من البربر البرانس ، كانت في القديم تشتمل على على بطون وعمائر كثيرة مثل بجاية ، ونفاسة ، ونفحة ، وزهكوجة ، ورغيرة ؛ ودقيوسة ؛ وقد عظمت هذه البطون فيما بعد حتى أصبحت تعد قبائل مستقلة ، كان أمير هذه القبيلة عند دخول الاسلام أرض المغرب يدعى سكرديد بن زوغي ، ولي عليهم مدة ثلاثاً وسبعين سنة ، وأدرك الفتحَ الاسلامي ، ومات سنة 71 هـ ، وقد بقيت زعامة البربر في هذه القبيلة حتى دخل ادريس الأول المغرب فتنازل له الأمير اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي عن الامارة ، واندمجت وربة في عداد القبائل البربرية لا تتميز عن سائرها بشيء . ولا تزال فرقة من قبيلة البرانس المغربية تحمل اسم وربة الى الآن ، واسم وربة معرب لاسم أوربة البربري وهو بفتح الهمزة والواو وسكون الراء .

وصنهاجة (43) وغمارة (44) وسائر البربر ، وتمتْ له البيعة ، واستقامَ الناسُ له ، وتوطدَ ملكه ، وكبرَ سلطانه ، وقويتْ جنوده وأشياعُه ، وعظمت جيوشُه وأتباعُه .

ومما يذكرُ عنه أنه قال في حال قتاله لمن عانده :

أليس أبونا هـاشمٌ شدَّ أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فلسنا نملُ الحربَ حتى تملنا ... ولا نشتكي مما يؤول الى النكب

ولكننـا أهلُ الحفائـظِ والنهـا ... إذا طارَ أرواحُ الكماة من الرعب

وقصد الناس نحو الامام ادريس بن ادريس من كل مكان ، ووفدوا اليه من سائر البلدان ، وكان ممن وفد عليه نحو خمسمئة فارس من افريقية والأندلس من القيسية (45) والأزد (46) والخزرج (47)

---

43) صنهاجة : احدى قبائل البربر البرانس وأعظم قبائلهم بالمغرب على الاطلاق ، اذ لا تكاد ناحية من نواحيه تخلو من بطن من بطونهم ، وأكثر النسابين البربر يجعلونهم من العرب الحميريين .

وقد تفرعت عن القبيلة الأصلية فروع كثيرة نمت بمرور الزمان وارتقت كل واحدة منها الى درجة قبيلة ذات اسم خاص بها . اما القبائل التي بقيت تحمل الاسم الأصلي فهي مستقرة اليوم بشمال المغرب ، وهي منقسمة الى ثلاث قبائل كبيرة أ - صنهاجة مصباح المشتملة على عمارتين كبيرتين : صنهاجة الظل ، وصنهاجة الشمس ، وهي تابعة لقيادة ثلاثاء بني وليد ، ب - صنهاجة غدو ، وهي تابعة لقيادة كاف الغار باقليم تازة ، ت - صنهاجة السراير المشتملة على عمائر : كتامة - بني سدات - بني خنوس - الزرقات - غزاوة (تغزوت) - بني أحمد - بني بشير - بني بوشيبة ، وتقع باقليم الحسيمة، وتشتمل كل واحدة من هذه القبائل والعمائر على عدد كبير من البطون والقرى .

44) غمارة : قبيلة بربرية شهيرة تنضوي تحتها قبائل كثيرة ، لا يزال قسم منها معروفاً بهذا الاسم في شمال المغرب الأقصى بين قبائل صنهاجة والريف والبحر الأبيض المتوسط ، وهو يشتمل على القبائل التالية : بني زيات - بني زجل - بني خالد - بني سلمان - بني بوزرة - بني منصور - بني جرير - بني رزين ، وتوجد منها فروع أخرى في سائر المغرب تحمل أسماء أخرى ، أو تحمل اسم غمارة ولكنها مندمجة في قبائل لا تحمل ذلك الاسم .

45) القيسية : شعب عربي عظيم ينتسبُ الى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وتتشعب القيسية الى ثلاثة بطون كبيرة : كعب ، وعمرو ، وسعد ، وغلب اسم القيسية على القبائل العدنانية حتى جعل في مقابل القحطانية التي تنضوي تحتها قبائل اليمن قاطبة . وفي المغرب أسر عربية كثيرة تنتمي الى القيسية ، منهم أسر تحمل اسم (القيسي) .

46) الأزد : من أعظم قبائل العرب وأشهرها تنسب الى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان، من العرب القحطانية ، وهم ينقسمون الى أربعة أقسام : أزد شنوءة ، وأزد غسان ، وأزد السراة ، وأزد عمان .

47) الخزرج بطن من الأزد القحطانية ، كانوا يقطنون يثرب مع الأوس عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

وبني يحصب (48) والصدف (49) وغيرهم ، فسر ادريس رضيَ اللهُ عنه بوفادتهم ، وأجزل صلاتهم وقربهم ، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر ، فاعتز بهم ، فانه كان فريداً بين البربر وليس معه عربي .

ولما رأى ادريس رضي الله عنه ان الأمرَ قد استقام له وعظم ملكه وكثر حشمه وضاقت بهم مدينة وليلة عزمَ على الإنتقال منها وأراد أن يبنيَ مدينة لنفسه يسكنها هو وخاصة جنوده ووجوه أهل دولته ، فركب بعد الاستخارة في خاصة قومه ، وجال جملة من النواحي الى أنْ بلغ جبل زالغ (50) فعزم أن يبنيَ به مدينة عظيمة ، فظهر له أن الهوام تكثر فيه زمن القيظ ، فانتقل لوادي سبو (51) ، وعزم أيضاً أن يبنيَ به مدينة ، فظهر له أن المدود تصل اليها زمن المطر ، وما زال يرتاد حيث يبني ، واستشار وزيره عميرَ بنَ مصعب الازدي ليرتادَ له موضعاً للمدينة فسار عمير في جماعة من قومه لينظر ما طلب ، فاخترق تلك النواحي ، الى أن نزل على عين ماء غزيرة مطردة في مروج نضرة ، فتوضأ منها هو ومَن كان معه ، وصلى بهم حولها ، ثم دعا الله تعالى أن يهونَ عليه مطلبه ، وأن يدله على موضع يرتضيه لعبادته ، فسميت العينُ عين عمير الى الآن ، ثم انه ركب وتوجهَ نحو فحص سايس (52) ليطلبَ ما خرج اليه ، حتى وصل الى

---

48) يحصب بن دهمان بطن من عامر بن حمير .

49) الصدف : قبيلة عربية من ولد الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر ، دخلت بطونهم الأولى الى المغرب في عهد الامام ادريس الثاني ودخلت بطون أخرى الى الأندلس اثناء سنوات الفتح ، ولا تزال أسرة (الصدفي) موجودة بفاس الى اليوم .

50) زالغ او زلاغ : جبل يحاذي فاس من جهة الشمال تسكنه قبيلة لمطة .

51) سَبُو : ثاني أنهار المغرب أهمية بعد نهر أم الربيع ، ينبع من الأطلس المتوسط ويسير متعرجاً منحنشاً متضخماً بانصباب روافده فيه ، مثل وادي يناون ، ووادي اللبن ، ووادي ورغة ، ووادي بهت ، يحاذي فاس من جهة الشرق وفيه يصب النهر المار بها ، ويصب في المحيط الأطلسي عند قصبة المهدية ، وهو النهرُ الوحيدُ في المغرب الذي تدخله السفن الكبيرة . وقد أقيمَ عليه مرسى داخلي عند القنيطرة (قنيطرة علي وعدي) .

52) سايس : هو البسيط الممتد بين فاس ومكناس فاصلا سلسلة جبال الأطلس المتوسط عن سلسلة الأطلس الساحلي ، تسكنه قبائل عربية قحة مثل حميان والمهايا والشجع وأولاد سيدي الشيخ وأخرى بربرية مستعربة مثل اية عياش وبني مطير وگروان . وهو معروف بهذا الاسم الى الآن ، وأرضه من أخصب أراضي المغرب وأجودها .

العيون التي ينبعث منها نهرُ فاس ، فرأى عيوناً كثيرة تزيدُ على ستين عنصراً ، ومياهها تطرد على رضراض في فسيح من الأرض ، وحول العيون شعراء من الطرفاء والطخش والعرعار والكرخ وغير ذلك ، فدله ذلك على جودة ماء تلك العيون بعد أن شربَ من الماء فاستطابه ، وقال هذا ماء عذب وطعم معتدل ومحل كثير المنفعة لأجل ما جاوره من الأشجار وحوله من المزارع ، ثم سار مع مسير الوادي حتى وصل الى موضع مدينة فاس فنظرَ الى ما بين العدوتين ، فرأى غيضة ملتفة الأشجار ، مطردة بالعيون والأنهار ، وفي مواضعَ منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناتة يعرفون بزواغة (53) ، وبني يزغتن (54) ، فرجع عمير الى الامام ادريس رضي الله عنه وأعلمه بما رأى من الأرض وما استحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها واعتدالها ، فأعجب الامام ادريس ما رأى من ذلك وسأل عن ملاك تلك الأرض فقيل له هم قوم من زواغة يعرفون ببني الخير ، فقال الامامُ ادريس : هذا فال حسن ، وبعث اليهم واشترى منهم موضعَ المدينة بستة آلاف درهم ودفعَ لهم الثمن ، وانعقد الاشهادُ بينهم بذلك في رسم من انشاء كاتبه أبي الحسين عبد الله بن مالك المالكي الأنصاري الخزرجي ، وذلك في سنة احدى وتسعين ومئة .

ثم ان الامامَ ادريسَ ضرب أخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوة (55) من عدوة الأندلس ، ودوَّرَ عليه جرواوة من الخشب فسميَ الموضع به الى زمننا . ثم انتقل بعد ذلك الى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين حيث دارُ القيطون المتصلة بمسجد الشرفاء ، ثم شرع في البناء حسبما يذكر بعدُ بحول الله تعالى ، كذا نكره ابن الرقيق وغيره .

---

53) زواغة : قبيلة زناتية شهيرة لم يبق لها اليوم وجود بهذا الاسم ، ولكن الأراضي التي كانت تسكن بها عند مجيء الامام ادريس الى فاس ما زالت تعرف بها ، وهيَ محاذية لفاس من جهة الجنوب ، وعليها تمر الطريق الذاهبة من فاس الى كندر (موزار) .

54) بني يازغة : وفي كتب تاريخية كثيرة بني يزغش ، وقد عُرب هذا الاسم الآن فأصبح بني يازغة . وقد تحولت هذه القبيلة من مواطنها بضواحي فاس وأصبحت مستقرة الى الجنوب الشرقي منهـا .

55) ما زال هذا الموضع معروفاً باسم جرواوة حتى الآن ، ويفهم من كلام الجزنائي ان جرواوة - وأجرواو التي وردت في بعض النسخ - معناها الحائط والحاجز.

فمن فضل هذه المدينة وشرفها ما نقله أهلها خلَفْهم عن سلَفِهم أنه وجد في كتاب دراس (56) بن اسماعيل المكنى بأبي ميمونة بخط يده رحمه الله تعالى : حدثني علي بن أبي مطر بالاسكندرية ، قال حدثني محمد بن ابراهيم ابن المواز عن عبد الرحمان بن القاسم ، عن مالك بن أنس ، عن محمد بن شهاب الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس أقوم أهل المغرب قبلة وأكثرهم صلاة ، أهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به لا يضرهم مَن خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهون الى يوم القيامـة .

وابن أبي مطر هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي مطر من ولد أبي موسى الأشعري ، كان مجابَ الدعوة ، توفيَ بالأسكندرية سنة تسع (57) وثلاثين وثلاثمئة . كذا نقل عياض (58) رحمه الله في مداركه .

ودراسٌ رحمه الله ورضي عنه ممن أدخل علمَ مالك رضيَ الله عنه بلاد المغرب ، فانه كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين الى أن دخل علي بنُ زياد والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم من الحافظين لمذهب مالك ، فأخذه كثير من الناس ، فلم يزل يفشو الى أن جاء سحنون ففض حلقَ المخالفين ، واستقر المذهب بعده في أصحابه ، فشاع في أقطار المغرب الى وقتنا هذا . وأما أهل الأندلس فكان رأيهم منذ افتتحت على رأي الأوزاعي الى أن رحل إلى مالك زياد بنُ عبد الرحمان ، وقرعوس بن العباس ، ومَن بعدهما ، فجاءوا بعلم مالك ، وأبانوا للناس فضله واقتدى الأئمةُ به ، فعرف حقه ، ودرس مذهبه الى أن أخذ أميرُ الأندلس اذ ذاك،

---

56) انظر ترجمته في جذوة الاقتباس ص 121 و الفكر السامي 3 : 115 .

57) في نسخة دار الكتب المصرية : سبع .

58) عياض بن موسى اليحصبي السبتي أبو الفضل ، عالم أهل المغرب وإمام أهل الحديث في وقته كان من أعلم الناس بكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، ولد بسبتة عام 476 وولي قضاءً بلده وقضاء غرناطة ، وتوفي بمراكش عام 544 هـ ، من مؤلفاته (الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى) و (ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، في معرفة أعلام مذهب الامام مالك) وغيرهما . تراجع ترجمته مفصلة في الكتاب الذي خصه أحمد المقري التلمساني بالتعريف به المسمى (ازهار الرياض ، في أخبار القاضي عياض) .

وهو هشام بن عبد الرحمان بن معاوية بن عبد الملك بن مروان الناسَ جميعاً بالتزامهم مذهب مالك ، وصير القضاءَ والفتيا عليه ، وذلك في عشرة السبعين ومئة في حياة مالك رحمه الله ، وشيخ المفتين حينئذ صعصعة بن سلام امام مذهب الأوزاعية وراويته ، وقد لحقَ به من أصحاب مالك غيرة ، فالتزم الناس هذا المذهب ، وحملوا بالسيف عن غيره جملة ، وأدخل فيها قوم من الرحالين والغرباء شيئاً من مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وداود فلم يُمكنُوا من نشره ، فمات لموتهم على اختلاف أزمانهم الا مّن تعبد به في نفسه ممن لا يؤبه بقوله ، على ذلك مضى الأندلسيون الى وقتنا هذا .

وسُمّي دراس لكثرة درسه العلم ، أصله من مدينة فاس ، سمع من شيوخها ، وبافريقية من أبي بكر بن اللباد وغيره ، وبالأندلس من شيوخها ، وله رحلة حجّ فيها وسمع من علي بن أبي مطر بالأسكندرية كتابَ ابن المواز وحدث به بالقيروان ، سمع منه أبو محمد بن أبي زيد ، وأبو الحسن بن القابسي وغيرهما ، ودخل أيضاً الأندلسَ مجاهداً وطالباً ، فتردد بها في الثغر ، فسمع منه أبو الفرج عبدوس بن خلف ، وخلف بن أبي جعفر وغير واحد ، وكان أبو ميمون من الحفاظ المعدودين ، والأئمة المبرزين من أهل الفضل والدين ، ممن له الأمانةُ بمذهب مالك رضيَ الله عنه ، توفي بفاس بلده سنة سبع وخمسين وثلاثمئة وقبرُه بخارج باب الجيزيين (59) منها معروف ، والدعاء عليه مجاب ، وله بفاس مسجد (60) يعرف به ، وقد جدد قبره مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله ، وجعل هناك رخامة منقوشة باسمه وتاريخ موته ونصبتْ عند رأسه في أول سنة أربع وخمسين وسبعمئة .

وأخبرَ ابنُ التبان أن رجلا من أهل المغرب قال له سنة سبع وخمسين وثلاثمئة : كنت بالرمادة فرأيتُ السماءَ والأرضَ تبكيان ! فقلت ما هذا ؟ فقيل لي مات أبو ميمونة ، فكان كذلك ! .

---

59) هو الباب المعروف اليوم بباب الحمراء .

60) يقع هذا المسجد بحومة مصمودة ، وما زال منسوباً اليه حتى الآن .

وكثيراً ما كان ينشد :

غفلتُ وحادى الموت في أثري يحدو
وان لم أرح ميتاً فلا بدَّ أن أغدو

أرى العمرَ قد ولّى ولم أبلغ المنى
وليس معي زاد وفي سفري بعد !

أنعـــم جسمـــي باللبـــاس ولينـــه
وليس لجسمي من قميص البلا بد !

كأني به قد مد في برزخ البلا
ومن فوقه ردم ومن تحته لحـد

وقد ذهبت مني المحاسنُ وامتحت
ولم يبقَ فوقَ العظم لحم ولا جلد

فكيـف اذا بالنـــار يـارب قـــربت
ونارك لا يقوى لها الحجرُ الصلد

عسى غافرُ الزلات يغفرُ زلتـــي
فقد يغفرُ المولى اذا أذنب العبـد

نقل أكثر هذا الفصل من (**المدارك**) وغيره ، ومَن أراد الوقوفَ على اكثر من ذلك فليطالع كتاب (**المستفاد في ذكر الصالحين من فاس والعباد**) .

ولما عزم الامام ادريس رضي الله عنه على بناء مدينة فاس بعد أن اختبرَ تربتها وهواءها ورياحها وماءها ، وتحقق بعدها من الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العفنة وعلمَ أن ذلك مما يأمن به سكانها رفع يديه الى السماء وقال : اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلا بها كتابك ، وتقام بها سنتك وحدودك ، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها ، ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها مَن يشاء

من عباده ، والعاقبة للمتقين ، ثم أخذَ المعولَ بيده ، وابتدأ يحفرُ الأساس، واتبعه الفعلة في ذلك ، فلم تزل دار علم وسنة .

وذكر ابنُ غالب في تاريخه أن الامامَ ادريس حين عزمَ على بناء مدينة فاس واختطاطها مرَّ به شيخ كبير من الرهبان كان مترهباً في صومعة قريبة من تلك الجهات ، فوقف للإمام إدريس رحمه الله وسلَّم عليه ، ثم قال له أيها الأمير ، ما تريدُ أن تصنعَ بين هذين الجبلين ؟ قال : أريدُ أن أختطَّ بينهما مدينة لسكناي وسكنى ولدي من بعدي ، يُعبَدُ الله تعالى بها ويتلا كتابه وتقام حدوده ، فقال له أيها الأمير : ان لك عندي بشرى ، قال وما هيَ أيها الراهب ؟ قال له : أخبرني راهب كان قبلي في هذا الديْر هلك منذ مئة سنة أنه وجد في كتب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينةٌ تسمَّى ساف خربتْ منذ ألف سنة ، وأنه يجددها ويُحيي أثرها ويقيمُ دارسها رجل من آل بيت النبوءة يسمَّى إدريس ، ويكونُ لها شأن عظيم وقدرٌ جسيم ، لا يزال دين الاسلام قائماً فيها الى يوم القيامة ، فقال إدريس : الحمد لله ، أنا ادريس ، وأنا من آل بيت النبوءة ، وأنا بانيها ان شاء الله تعالى ، فكان ذلك مما قوَّى عزمَه على بنائها .

ويدل على صحة ذلك والله أعلم ما رواه البرنسي أن رجلا من اليهود احتفر أساساً لدار يبنيها بقنطرة عديلة من المدينة المذكورة ، والموضع يومئذ شعراء بالطخش والبلوط وغير ذلك ، فوجدَ في الأساس قطعةَ رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالخط السندي : هذا موضعُ حمام عمر ألف سنة ثم خربَ فأقيم بموضعه بيعةٌ للعبادة ، كما قال عمر بن أبي ربيعة :

فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ بيعـةٍ
بدتْ لك خلف السجف أم أنت حالم

واختُلفَ لِمَ سُمِّيتْ فاس ؟ فقيل إن الامامَ ادريسَ لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناع والفعلة ، فصنع له بعض خدمه فاسا من ذهب فكان يمسكه بيده ويبدأ به الحفرَ ويختطُّ به الأساسات للفعلة : فكثرَ ذكرُ ذلك الفاس على ألسنتهم في طول مدة البناء ، فكان الفعلة يقولون : هاتوا الفاس ، خذوا الفاس ، احفروا بالفاس ، فسميت مدينة فاس لأجل ذلك .

قاله صاحب **الاستبصار** ، وهذا والله أعلم لا يصحّ ، لأن إدريس رضيَ الله عنه لا يجهل أن استعمال الذهب محرم على الرجال .

ويقال : انه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة وُجِدَ في الحفير فاسٌ كبيرٌ طوله أربعة أشبار ، وسعتُه شبر ، وزنتُه ستون رطلا من عمل الأوائل ، فسُميت المدينة به وأضيفت اليه ، نقل معناه المظفري وقيل : انه لما تمتْ بالبناء قيل للامام ادريس : كيف تُسميها ؟ قال أُسميها باسم المدينة التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني الراهب أنه كانت هنا مدينة أزلية من بنيان الأوائل فخربت قبل الأسلام بألف عام ، وكان اسمُها مدينة ساف ، ولكني أقلبُ اسمها الأول وأسميها به ، فجاء منه فاس فسميتْ به ، كذا نقله علي بن عبد الله بن أبي زرع في كتابه المسمى بـ **(الأنيس)**.

وكان تأسيسُ مدينة فاس على ما ذكره المؤرخون الذين عنوا بتواريخها ، وبحثوا عن أمورها وأحداثها على نحوِ ما نذكر :

أما عدوةُ الأندلس فإنها أُسست في يوم الخميس مهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومئة ، أقامَ الامامُ إدريسُ منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخبيته وقبابه ، وابتدأ سورها من جهة القبلة ، وفتح هناك باباً سماه بباب القبلة ، ثم مرَّ بين الموضع المعروف بالفوارة وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك باباً سماه بباب الفوارة ، ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية الى الوادي الكبير الى برزخ وفتح هناك باباً سماه بباب المخفية ، كان يقابلُ بابَ الفرج من عدوة القرويين . ثم مرَّ بالسور الى الشيبوبة (61) وفتح هناك باباً سماه باب الشيبوبة كان يقابلُ بابَ الفصيل المعروف الآن بباب النقبة من عدوة القرويين ، ثم مرَّ بالسور الى رأس حجر الفرج وفتح هناك باباً سماه بباب أبي سفيان ، ثم مرَّ بالسور على جرواوة وفتح هناك باباً سماه بباب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة ، وبخارجه كان يسكنُ المرضى لتكونَ روائحُهم تحتَ الريح الغربية فإنها الغالبة

---

(61) هي الحومة الواقعة في نهاية الحدادين بين درب اللمطي وبين المدن .

بفاس ، وليكونَ تصرفُهم من الماء بعد خروجه من البلد ولا يصل منَ ضررهم للمدينة شيء ، ثم انتقلوا من الموضع المذكور لكهوف باب الشريعة في زمن المجاعة ، وكانوا يتصرفون بالماء الذي بأعلا المدينة ، فرفع لمولانا أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق رحمه الله أن ذلك يضرُّ بالناس ، فأمر بانتقالهم لكهف بظاهر برج الكوكب (62) ، وهو الموضعُ الذي فيه سكناهم الآن ، ثم مرَّ بالسور الى أن وصل بابَ القبلة المذكور ، وقد استدارَ بها السور ، ثم بنى جامعاً للخطبة بقرب رحبة البير ، ويُعرف بجامع الأشياخ (63) .

وأما عدوةُ القرويين فإنها أسست في مهل شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومئة ، أقامَ الامامُ ادريس منها بالموضع المعروف بالمقرمدة ، ويعرفُ الآن بدار القيطون ، وبقرب مسجد الشرفاء حيث مسكنى حفدة ادريس رضيَ الله عنهم . وابتدأ سورها من رأس عقبة عين علون وفتح هناك باباً سماه بباب افريقية وبه يُعرف الآن ، وجدده مولانا المستعينُ ووسعه وذلك في شوال سنة ستين وسبعمئة ، وكان حولَ العين التي هناك غيضةٌ عظيمةٌ يقطعُ بها الطريق عبدٌ أسودُ اسمه علون ، فرفع ذلك للامام ادريس فأمرَ بصلبه بأعلا شجرة هناك إلى أن تقطعت أشلاؤه ، فسميت العينُ باسمه ، ثم مرَّ بالسور الى عين دوردور الى عقبة الصعتر (64) وفتح هناك باباً سماه بباب القوس ، ثم مرَّ بالسور الى أغلان وفتح هناك باباً سماه بباب الفصيل وهوَ الذي ذكرنا أنه يعرف بباب النقبة ، ثم مرَّ بالسور مع ضفة الوادي وفتح هناك باباً سماه بباب الفرج ، ويعرف بباب السلسلة ، ثم مرَّ بالسور الى مقربة من عيون ابن الصادي ، وفتح هناك باباً سماه بباب الحديد ، وليس هو الباب المعروف بذلك الآن ، ثم مرَّ بالسور لأعلا عقبة الجرف وفتح هناك باباً سماه بباب القلعة ، ثم مرَّ بالسور حتى وصل به بابَ افريقية المذكور ، وقد استدارَ بها السور ، ثم بنى جامعاً للخطبة متصلا بمنزله وهوَ المعروفُ الآن بمسجد الشرفاء .

---

62) حيث يوجد الآن ضريح سيدي علي المزالي .

63) ويعرف أيضاً بالجامع الأنور ، وهو واقع في مدخل زنقة سيدي بوجيدة .

64) هي العقبة الواقعة بين الصفاين وباب عجيسة ، وبها ضريح سيدي احمد بن يحيى .

وكان الامام ادريس رضيَ الله عنه في أثناء ذلك أمرَ الناسَ ببناء الدور والغرس ، ونادى فيهم أن كل مَن بنى موضعاً واغترسه قبل تمام بناء السور فهوَ له هبةٌ لله تعالى ، فيظهرُ من هذا والله أعلم أن مَن بنى شيئاً بعد تمام السور المذكور انما يكونُ باستئجار الأرض ، وهو سبب الجزاء (65) في بعض جهاتها .

ولما فرغَ الامامُ ادريس رضيَ الله عنه من بناء أسوار المدينتين وجامعيْ خطبتيهما أنزل القبائلَ الوافدين عليه من جزيرة الأندلس بالعدوة الشرقية منها فسميت بذلك عدوة الأندلسيين ، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فسميت بذلك عدوةَ القرويين . ثم أمرهم بزيادة البناء والغرس ، فبنى الناسُ الدورَ والمساجدَ والحوانيت ، وغرسوا جانبَيْ الوادي من منبعه بفحص سايس الى مصبه في نهر سبو بأنواع الأشجار وضروب الثمار وحرثوا سائر نواحيها بأنواع الزراعات ، فعمرت الأرضُ بالغراسة والحراثة وظهر صلاح ذلك والانتفاع بغلاته في أقرب وقت ، فكثرت الخيرات ، وزادت العمارات ، وقصدها الناسُ من جميع البلاد والجهات والأصقاع ، وسكنها الفقهاءُ والعلماءُ والتجارُ والصناع .

ولما سُكنتْ مدينته واستقامت رعيتُه ، وحضرتْه الجمعةُ صعد المنبر فخطبَ الناس ثم رفع يدَيْه في آخر خطبته وقال : اللهم انك تعلم أني ما أردتُ ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ، ولا سمعة ولا مكابرة ، وانما أردت أن تُعبد فيها ، ويتلا بها كتابك وتقام حدودك وشرائعُ دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا ، اللهم وفقْ سكانَها وقطانَها للخير وأعنْهم عليه ، واكفهم مؤونة أعدائهم ، وأدررْ عليهم الأرزاق ، وأغمدْ عنهم سيف الفتنة والنفاق ، انك على كل شيء قدير ، فأمَّن الناسُ على دعائه ، فكثرتْ بالمدينة الخيرات ، وظهرت البركات .

65) الجزا ، وينطق المغاربة جيمه جيماً بدوية هو مالٌ يؤديه المرء جزاء بنائه على أرض لا يملكها ، وفي فاس حومات كاملة كان الناس يؤدون الجزاء عن الدور والحوانيت والمصانع التي بنوها بها ، مثل جزاء ابن عامر وجزاء برقوقة وجزاء ابن زكون .

وأقامَ الامامُ ادريس رضيَ الله عنه ساكناً بها الى سنة سبع وتسعين ومئة ، فخرج الى غزو مَن بقِيَ من الكفار بنفيس (66) وبلاد المصامدة (67) ، فوصل اليها ودخل مدينةَ نفيس ومدينةَ أغمات (68) وفتح سائر بلاد المصامدة ورجع الى مدينة فاس فأقام بها الى شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومئة ، فخرج منها الى مدينة تلمسان لتكون الكلمةُ واحدة في اعزاز الدين وظهوره ، فغلبَ عليها وافتتحها ، ونظر في أحوالها وأصلح أسوارها وجامعها الذي بأجَدير (69) ، وصنع فيه منبراً وكتب اسمَه فيه. كذا نقل ابن غالب ، وصاحب **الأنيس** .

وقال الوراق في مقباسه : دخلتُ جامعَ تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمئة ، فرأيتُ في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد سُمِرَ هناك ، وعليه مكتوب : هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضيَ الله عنه في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومئة .

ثم رجع الامامُ ادريس الى مدينة فاس ، فلم يزلْ بها الى أن توفيَ رحمه الله تعالى في أول شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومئتين ، وهو

---

66) **نفيس** : اسم نهر ينبع من كدية تيشكة (تيزي ن تيشكة) بجبال الأطلس الكبير جنوبي مراكش ينحدر شمالا الى أن يصب في وادي نسيفة (تنسيفت) فرق زاوية الشرادي تاركاً مراكش الى شرقه وعلى ضفاف هذا النهر توجد بلاد نفيس التي تمكنها قبائل بربرية شديدة البأس ، ومدينة نفيس التي يشير اليها المؤلف ذكرها صاحب **الاستبصار** وقال عنها انها مدينة قديمة ازلية غزاها عقبة بن نافع سنة 62 وحاصرها وفيها الروم والنصارى البربر، فافتتحها وأصاب المسلمون فيها أموالا كثيرة ومغانم كثيرة وبنى فيها عقبة مسجداً بقيَ معروفاً الى زمان مؤلف **الاستبصار** وهوَ نهاية القرن السادس الهجري .

67) بلاد سوس والقسم الغربي من الأطلس الكبير .

68) **أغمات** : مدينة تاريخية بقرب مراكش اضمحلت اليومَ ولم يبق منها الا الأطلال اشتهرت بكثرة من ولد بها او تردد عليها من العلماء والصلحاء ، كما اشتهرت باقامة المعتمد ابن عباد أمير اشبيلية بها جبرياً بعد ما استولى يوسف بن تاشفين على امارته ، وبها قبره معروف الى اليوم . وقد تحدث صاحب **الاستبصار** عنها فقال : واغمات مدينتان : احداهما تسمى أغمات وريكة ، والأخرى اغمات هيلانة ، وبينهما نحو ثمانية أميال ، وبأغمات وريكة يسكن الأعيانُ وبها ينزل التجار على القديم لأنها كانت دارَ التجهيز للصحراء الخ. تطالع اخبارها واخبار رجالها في كتاب القاضي العباس ابن ابراهيم التعارجي المسمى الاعلام ، **بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام** .

69) كان الحيُّ التحتاني من تلمسان يسمى أجَدير ، ولا يزال يدعى كذلك الى الآن ، وبه بنى الامام ادريس مسجده الذي لا تزال صومعته قائمة .

ابنُ ثمان وثلاثين سنة وثمانية أشهر بالاستقراء ، فكانت أيامُ كفالة راشد له وبقية حمله عشرَ سنين وعشرةَ أشهر ، وأيامُ امارته سبعاً وعشرين سنة . ويُذكر أنه دُفن بمسجد الشرفاء بإزاء الحائط الشرقي منه (70) ، وقد أنشد بعضُ شعراء فاس في ذلك من قصيد طويل :

مدينةُ إدريسَ بنِ إدريسٍ التي   بها قبرُه ثاوٍ ومنبره مبنى
منازل آلِ الله آلِ رسوله   فأحببْ بهم أهلا ، وأحبب بهم معنى

وكان سببُ وفاته على ما قاله البكري أنه أكل عنباً فشرِقَ بحبة منه فمات من حينه رحمه الله تعالى .

وخلف من الولد على ما ذكره ابنُ حزم في جمهرته ثلاثة عشر ذكراً : ادريس ، وأحمد ، وعبد الله ، ويحيى ، والحسن ، والحسين ، ومحمداً، وعبيد الله ، وداوود ، وعيسى ، وعمر ، وجعفر ، والقاسم ؛ وقيل وحمزة وقيل أكثر من ذلك . فولّي بعده محمد (71) وهو أكبرهم ، وما زال حفدة الإمام ادريس بن ادريس رضيَ الله عنه قاطنين بمدينة فاس منذ أسست الى زمننا هذا ، محمولين على البر والاكرام ، والمحاشاة والاحترام ، والرعْي المستدام ، على مرِّ الليالي والأيام ، يتبركُ الناسُ بشهادتهم في الصدقات والصدقات (72) ، ويتوسلون بهم في الشفاعات ، ويستسقون بأطفالهم في الاستسقاءات :

أُولو طهارة أحساب اذا انتسبوا   أبدا السرورُ ابتهاجاً كلما فخروا
توارثوا المجد عن آبائهم ، فلهم   فوق السهى رتبٌ من فوقها ظهروا
اذا تضوع نشرُ الحمد عن عبق   فاعلمْ بأنهم في حينه ذكروا

---

70) ذكر ابن أبي زرع في القرطاس نقلا عن البرنسي ان الامام ادريس الثاني توفي بوليلة من بلاد زرهون ودفن الى جانب قبر أبيه في ربلط وليلة .

71) هو ثالث ملوك الدولة الادريسية ، توفي بفاس في شهر ربيع الثاني سنة 221 ودفن بشرقي جامعها مع أبيه الامام ادريس الأول واخيه عمر جد الأدارسة الحموديين الأندلسيين .ظ القرطاس ص 30 - 31 .

72) الصدقات الأولى بفتح الدال الثانية بضمها جمع صدُقة : الصداق ، وفي القرآن الكريم : وآتوا النساء صدُقاتهن نحلة .

وقد بالغ مولانا أبو الحسن (73) رحمه الله في الاحسان لجميع الشرفاء القرباء منهم والبعداء ، وبعث قاضيَ حضرته الأشهر ، وعالمه الأكبر ، ابراهيم بن عبد الرحمان بن أبي يحيى (74) رحمه الله تعالى لسائر بلاده مميزاً لأعيانهم ، ومختبراً لأنسابهم ، حتى ثلجَ صدره بصميم نسبهم، وصريح حسبهم ، واقتدا مولانا المستعين (75) رحمه الله بأبيه المرحوم في برهم والأنس بقربهم ، فنما جرايتهم ، وقرب مكانتهم ، وقضى حاجتهم ، وعلاَّ منازلهم ، وراعى وسائلهم ، وأجرى لهم الأرزاق السنية ، وتعهدهم بالصلات المرضية ، واختار لهم أقربهم نسباً ، وأطهرهم أماً وأباً ، وأنضرهم عوداً ، وأطولهم عموداً ، وأجودهم جودا ، وأكرمهم جدودا ، وقدمه رئيساً عليهم ، ومختبراً اليهم ، وفوض له في أمورهم ، صوناً لكبير قدرهم ، وهوَ سيدنا الشريفُ الطرفين ، الزاكي الأصلين ، السامي الفخار ، الشريف النجار ، الكبير المحتد ، الكثير السوْدد ، العريق النسب ، الشريف الحسب، ذو النفس الوفية ، والشيم الزكية ، والأفعال المرضية ، مزين المحافل، وجامع الفضائل ، صدر المجلس حيث انتهى احتفاله ، والمعظم في بساط الملك حيث تؤخذ آراؤه وتسمع أقواله ، آخذ راية

---

73) السلطان علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني واسطة عقد الدولة المرينية وأحد سلاطينها الاجلاء ، يكنى أبا الحسن ، ويلقب المنصور بالله ، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه ، ولد بتفرطيون في صفر سنة 691 وبويع بعد وفاة أبيه يوم الجمعة 25 ذي القعدة سنة 731 ومات بجبل هنتاتة ليلة الثلاثاء 27 ربيع الأول عام 752 ونقل جثمانه الى شالة فدفن بها . له أخبار كثيرة ، ومآثر في جميع بلاد المغرب العربي شهيرة ، وقد خصه العلامة المحدث محمد ابن مرزوق التلمساني المعروف بالجد والرئيس والخطيب بكتاب سماه المسند الصحيح الحسن ، من محاسن مولانا أبي الحسن وهو مطبوع .

74) ابراهيم بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن أبي يحيى التسولي التازي المعروف بابن أبي يحيى ، الفقيه القاضي السفير ، له تقييدان على الرسالة والتهذيب قيدهما أيامَ قراءته على أبي الحسن الصغير ، ولاه السلطان أبو الحسن المريني قضاء فاس ، واستعمله كثيراً في السفارة، وحضر ابنُ الخطيب السلماني أديب الأندلس الكبير دروسه بمدرسة عدوة الأندلس ، فلج بآخر عمره فالتزم منزله ، وكان السلطان فمن دونه يزورونه ، توفي عام 747 انظر جذوة الاقتباس ص 84 - 85 و درة الحجال 1 : 95 واعلام المغرب العربي 1 : 119 ع 123 .

75) ابراهيم بن أبي الحسن المريني الملقب بالمستعين بالله أحد ملوك بني مرين ، ولد سنة 735 ، وبويع منتصف يوم الجمعة 15 شعبان سنة 760 وقتله الوزير عمر بن عبد الله الياباني المؤلَّف له هذا الكتاب في يوم الخميس 21 ذي القعدة سنة 762 ودفن بالقلة خارج باب الجيسة ، بأعلا جبل العرض المعروف بجبل الزعفران . وكان آخرَ القوم دماثة وحياء وبعداً عن الشرور ، وركونا للعافية كما يقول ابن الخطيب .

الشرف بيدين ، وحائز قصب السبق في كل حلبة فما لسواه بها من يدين، الذي طابتْ أصوله ، وطالت فروعه ، ولم يزل الى العمل الصالح نزوعه، ابو عبد الله محمد :

فما مثله يخفى ، هوَ الشمسُ رفعةً
ونوراً واشراقاً، وهل تُجهلُ الشمس؟

أنارتْ بـه آفـاقُ كل جلالـة
وفاضتْ بوبْلِ الجود أنملُهُ الخمس

ابن سيدنا ووسيلتنا الى الله تعالى الشريف الطاهر الأردان ، المُتَّسِمِ بسيما الايمان ، صوام الهواجر ، ومتسربل ظلام الليل لقيامه وهو للكرا هاجر ، ذي المحامد والمآثر ، والمناقب والمفاخر ، ابي عبد الله محمد :

سمتٌ يروقُ وصيتٌ لم يدعْ أمداً
للفخـر منتسبـاً إلا تجـاوزه

إذا رأيتَ أرايتَ العينَ قُرَّتَهـا
فمـا تطيـقُ جـلالا أن تجـاوزه

ابن عمران ، بن عبد الواحد ، بن احمد ، بن علي ، بن يحيى ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن علي ، بن حمود ، بن يحيى ، بن ابراهيم ، بن يحيى بن محمد ، بن يحيى الجوطي ، بن القاسم ، بن ادريس ، ابن ادريس ، بن عبد الله ، بن حسن ، بن الحسن ، بن علي ، بن ابي طالب رضيَ الله عنه، لينظرَ في أمورهم وكافة شؤونهم ، وليكونَ عليهم أحنا ، وأمرُه فيهم أسنى ، ولتتصونَ بنظره أنسابهم ، وتتعرفَ بمعرفته احسابهم . وليلاً يدخلَ فيهم مَن ليس منهم ، او يخرجَ خارج عنهم ، وينزههم عن المكاسب الدنية ، ويمنعهم من المطاعم التي ليست بمرضية ، وأن يكفهم عن ارتكاب المآثم ، ويمنعهم من اقتراف المحارم ، ليكونوا على الدين الذي نصروه أغير ، وللمنكر الذي أزالوه أنكر ، فلا ينطق بذمهم لسان ، ولا يشنأهم إنسان ، نفعنا الله بحبهم ، وحشرنا في حزبهم .

ولله درُّ القائل :

حبُّ آل النبـي خالـط لحمـــي
وجرى في مفاصلي فاعذرونـــي
أنـا والله مغـرمٌ فـي هواهـــم
عللونـــي بذكرهـــم عللونـــي

ولو ذهبتُ لاستيفاء مناقبهم الجليلة ، ومآثرهم التي أفردتْهم بكل فضيلة ، لملأتُ من ذلك الأوراق ، ولم أوردْ إلا ما يقع الإجماعُ عليه والاتفاق ، وما ذكرناه من ذلك نزر يسير ، ونقطة من بحر في التقدير ، فلنرجعْ الى ما كنا بصدده من هذا الكتاب ، والله الموفقُ للصواب :

فمَن أحسن ما قيلَ في ذكر محاسن فاس :

يافاسُ منك جميعُ الحسن مسترق
وساكنوك ليهنهم لقد رزقـوا
هذا نسيمك أم روحٌ لراحتنـا
وماؤك السلسل الصافي أم الورق ؟
أرضٌ تخللها الأنهارُ داخلَهـا
حتى المجالس والأسواق والطـرق

وقال آخر :

بلدٌ أعارتـه الحمامـةُ طوقَهـا
وكساه ريشَ جناحـه الطـاووس
فكأنما الأنهـارُ منــه مدامــة
وكـأن ساحـات الديـار كـؤوس

وقال آخر :

ياعـدوة القروييـن التـي كُـرمتْ
لا زالَ جانبُك المحبورُ محبورا .

ولا سرى الله عنها ثوبَ نعمته
أرضاً تجنبت الآثامَ والـزورا

وقال آخرُ يمدحُ فاساً ومليكها :

تسودُ علـى بـلاد الله فـــاس
وحُقَّ لها بما خُصت تســود
كفاهـا أن أقـام بهـا مليـــك
عظيمُ القدر ليس لـه عنيـد
أليس لهـا علـى البلـدان فضل
وتأتيهـــا الركـــائبُ والوفـــود
أليس ترى مجابي الأرض تُجبَى
وعنهـا لا تمـيلُ ولا تحيـــد
ألـيس تـرى عبـادَ الله طــــراً
وكلهـــــم لمالكهـــــا عبيـــــد

وللفقيه القاضي الكاتب البارع محمد بن أبي عبد الرحمان (76) المغيلي يصفـ فاساً ويتشوق إليها حين ولَي القضاء بمدينة أزمور (77) :

---

76) صاحب القلم الأعلا محمد بن الفقيه القاضي محمد بن يحيى بن أحمد المغيلي من بيت بني المغيلي الفاسيين ، القاضي بفاس ، وكاتب العلامة والانشاء للسلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، قال ابن الأحمر في مستودع العلامة ص : 48 : رأس العلوم العقلية ، ونفس الفهوم النقلية، ومحكم الانشاء في الطرس ، والناظر في أحكام قضائه في دعاوي البعل والعرس ، وهوَ قاض وابن قاضي القضاة ، وحامل المعرفة بالوثائق بالخلال المرتضاة . لم يذكر ابن الأحمر وفاته ، ولا ابن القاضي في جذوة الاقتباس ص 145 و درة الحجال 1 : 273 .

77) أزمور : مدينة واقعة على الضفة الجنوبية لنهر أم الربيع لدى انصبابه في المحيط الأطلسي ، تبعد 80 كلم عن الدار البيضاء من جهة الجنوب ، و 17 كلم عن الجديدة من جهة الشمال . وهيَ احدى المدن المغربية العتيقة ، لكن تاريخها قبل الاسلام لايعرفُ بوضوح ، ذكر أبو القاسم الزياني أن أمراءَ صنهاجة أسسوها لما استقر البربرُ بالمغرب . كان لها بعد الفتح الاسلامي شأن في العلم والدين والسياسة والعمران ، لكنها تقهقرت عند ما استولى عليها البرتغاليون سنة 914 هـ اذ انجلا عنها أهلُها ، وبادت معالمُها وآثارُها وأصابَ الخرابُ جميعَ جهاتها ، ولما جلا عنها البرتغاليون بعد ذلك لم تعدْ لسابق عهدها في الحضارة والعمران ، سيما بعد تأسيس الدار البيضاء في شمالها والجديدة في جنوبها ، وهيَ الآن مدينة متوسطة يشتغل أهلها بالفلاحة ويتعاطون التجارة ، ولايخلون من فضل وعلم .

يافاسُ حيِّى الله أرضَكِ من ثرى
وسقاك من صوب الغمام المسبل
ياجنةَ الدنيا التي أربَتْ على
حمص بمنظرها البهيِّ الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها
ماءٌ ألذُّ من الرحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زُخرفت
بجداول كالأيم أو كالفيصل
ويجامع القروين شُرف نكره
أنسٌ تذكُّره يهيجُ تململي
وبصحنه زمنَ المصيف محاسنٌ
فمع العشيِّ الغربَ فيه استقبل
واجلسْ ازاءَ الخصة الحسنا به
واكرعْ بها عني فديتُك وانهل (78)

وقالت الحكماء : لاتستوطنْ الا بلداً فيه سلطانٌ حاضر ، وطبيب ماهر ، ونهر جار ، وقاضي عادل ، وعالمِ عامل ، وسوق قائمة .

وقالت الحكماء أيضاً : أحسنُ موضوعات المدن أن تجمعَ خمسة أشياء ، وهيَ النهر الجاري ، والمحرث الطيب ، والحطب القريب ، والسور الحصين ، والسلطان القاهرِ ، اذ به صلاح حالها ، وتأمين سبلها وكف جبابرتها .

78) بهامش نسخة الخزانة الملكية ما يلي :

ولابن الخطيب :

ياحبذا فاسُ الغراءُ من بلد كجنة الخلد أشجاراً وأنهاراً
الله يعلمُ أني مذ حللتُ بها وجدتُ داراً ولكن لم أجد جاراً

ومما ينسبُ لابن عاشر رحمه الله :

وقد مدحوا فاساً بأشياء جمة من العلم والآداب والدين والسنه
وقالوا بها عيبٌ تكد مريدها نعم صدقوا لكن كذاكَ هيَ الجنه

وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصالَ التي هيَ كمالُ المدن وشرفُها، وزادت عليها محاسنَ كثيرة ، وسأسردُ منها نبذاً :

فمنها نهرها المعروفُ بنهر الجوهر (79) الذي بأعلاها بنحو ستة أميال ، وهو يخرج من نحو ستين عنصراً ، جلها ينبعث من جهة القبلة ، وبعضها من جهة الغرب مسامتاً لمشرق الشمس ، وله منظر عجيب لصفائه وانهماله على الرضراض ، فيجتمع ما يخرج من تلك العناصر من المياه فيصير نهراً كبيراً يجري في بسيط من الأرض يكاد لا يتبين جريُ الماء فيه لاستواء أرضه ، وحواليه نبت الكرفس والسعداء في مروج مخضرة لا تزال كذلك في جميع فصول السنة ، الى أن ينحدرَ الى البلد فينقسم في داخلها على جداول كثيرة ، فيشق أكثر جهاتها ، ويتشعب في داخلها ، فينتفع به في مساجدها وسقاياتها ودورها وأرحائها وحماماتها وسقي جناتها ، ثم يخرج منها وقد حمل أثقالها (80) وسائر فضلاتها .

وكان مولانا أمير المسلمين أبو سعيد كرم الله وجهه يعجبه موضع عناصر هذا الوادي ، وأمر ببناء دار تكونُ للنزهة هناك ، وشرع في بنائها، ثم منع من تمامها موانع .

وليس لهذا النهر نظير لصفائه وعذوبةَ مائه وخفته وبرودة عيونه في زمن الصيف وسخانتها في زمن الشتاء ، وهو يسخن سريعاً، ويبرد سريعاً ، وينهضم سريعاً ، وهذه الصفات محمودة عند الأطباء ، ويخرج منه الصدف الثمين الذي يقوم مقام الجوهر ، ولذلك سُمِّيَ نهرَ الجوهر .

---

79) **وادي الجوهر** : يعرف اليوم بوادي فاس ، وبوادي الجواهر أيضاً ، ووادي الجواهر عند المثقفين فقط والمزايا التي ذكر المؤلف أن هذا الوادي يختص بها فيها مبالغة وغلو ، وقد نقصت مياه هذا الوادي اليوم نقصاناً كبيراً ، لأن السلطات الفرنسية عمدت أيام حكمها للمغرب الى أعلاه فأخذت منه كميات وافرة من المياه خصصتها لسقي الضيعات الاستعمارية التي انتزعتها من القبائل المحيطة بفاس، والنهر الذي يخرج من فاس حاملا أثقالها وأزبالها ليس هو نهر الجوهر ، بل هو نهر آخر يدعى وادي بوخرارب، يلتقي بوادي سبو على بعد أربعة كيلومترات الى الشرق منها ، وعلى هذا النهر الأخير توجد القناطر التي تصل احدى العدوتين بالأخرى .

80) ج ثقل : ما استقر تحت الماء ونحوه من كدر ، ويقصد المؤلف النفايات والأزبال .

ومن منافعه أنه يفتتُ الحصا التي تكونُ في المثانة ، ويزيلُ الصيبانَ من الرأس والقملَ من الجسد لمن اغتسل به وداوم على شربه ، ويلينُ البشَرة ، وتُغسلُ به الثيابُ دون صابونٍ فيبيضُها ويكسوها رونقاً وروائحَ طيبة ، ويوجدُ فيه السراطينُ المستعملةُ في الأدوية وليستْ توجدُ في غيره إلا نادراً ، ويخرجُ منه أنواعُ الحوت مثل اللبيس والبوري والسلباح والبوقة وذلك كله حوتٌ لذيذُ المطعم (81) .

ومنها أن بها ماءَ العيون والآبار والأنهار ، فمياهُ العيون عذبةٌ صافيةٌ باردةٌ في الصيف حين يراد ذلك منها ، ومياهُ الأنهار بعكسها سخنةٌ في الصيف باردةٌ في الشتاء ، فلا يزالُ الماءُ السخنُ والباردُ موجودَيْنِ في كل زمان ، وذلك مما يعين على التطهير والتنظيف .

ومنها قربُ المعادن لها ، كالملاحة التي بمجشر (82) الشاطبي الى وادي مكس (83) وبينهما في المسافة ثمانية عشر ميلا ، ومن النادر في هذه الملاحة أنها تحرثُ كلها بالزرع ، فتجدُ الفدادينَ في وسط الملح مخضرةً ناعمةً تتمايلُ خاماتها فضلا من الله ونعمة . وكمعدن الجبص والصلصال وأنواع الحجارة والرمال ، وذلك على اختلاف أنواعه متيسرٌ يصرفه الناس في منافعهم .

ومنها خشبُ الأرز المجلوب لها من جبال بني يازغة ، وهي بنحو الثلاثين ميلا عنها ، يصلُ كل يوم منه أحمال كثيرة فلا يعدم فيها بوجه ، وقد يعمر العودُ منه في الموضع الذي لا يناله ماءٌ ألف سنة وأزيدَ لا يعفن ولا يستاس .

ومنها الحطبُ الكثيرُ الذي يدخلها من سائر جهاتها كجبل بني بهلول (84) فانه يصبحُ كل يوم على أبوابها من أحمال البلوط وفحمه ما لا يوصف كثرة .

---

81) لم يبق معروفاً اليوم من هذه الأنواع الا البوري و **البوقة** و **النون** .

82) القرية في الاصطلاح المغربي - الأندلسي ، وتنطق مدشر بالدار وأحياناً نشرة .

83) واد يقعُ الى الشمال الشرقي من فاس على بعد 30 كلم منها في الطريق بينها وبين طنجة والغرب ، ولاتزالُ الملاحاتُ التي أشار إليها المؤلف قائمةَ العين والذات حتى اليوم .

84) يقع هذا الجبل جنوبي فاس ، بينها وبين صفرو ، وفي سفحه قرية البهاليل العتيقة .

ومنها المحرثُ العظيمُ الذي بأنظارها سقياً وبعلا وكثرة المجاشر ما ليس على مدينة من مدن الغرب .

ومنها بُعدُها من أطراف الأرض التي تخافُ فيها الفتنُ والغارات ...

ومنها اختصاصها بجميع الفواكه وأصنافها ، وأنواع الخضر والبقالي على اختلافها وسائر نوار الأرض وأزهارها حتى لايشقُ شيءٌ من ذلك على مَن طلبه .

ومنها قربُ العيون السخنة لها كحمة خولان (85) ، وحمة وشتاتة (86) وحمة أبي يعقوب (87) فان فيهن مرفقاً للاستحمام والتداوي ، وقد اعتنى مولانا أمير المسلمين أبو الحسن نوَّرَ الله ضريحَه ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتمَّ مصالحُ الناس فيها ومنافعهم (88) .

ومنها أن حرها وبردها ليس بالشديد جداً ، وقد يعتدلُ فيها الفصلان : الخريفُ والربيعُ في أوقاتهما ، فيكونُ دخولُ الخريف إلى الشتاء غيرَ متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الى هواء ومن زمان الى زمان بالتدريج ، فلذلك قرب اعتدالُ الهواء في أرضها ، وطابَ الثرى وعذُبَ الماء ، وزكت الأشجار وطابت الثمار وأخصبت الزروعُ وكثرت الخيرات ، وحسنت أخلاق أهلها ونضرتْ وجوهُهم وأبدانُهم وانفتقتْ أذهانُهم ، وقلما يخالف بعضُهم بعضاً في الخلقة والصور

---

85) حمةُ خولان : هي الحمة التي تعرف بسيدي حرازم تقع على بعد 15 كلم الى الجنوب الشرقي منها ، تنبعُ فيها مياه غنيةٌ بالغاز الكاربوني تبلغ حرارتها 35 درجة . وقد شرعت الدولةُ المغربية في السنين الأخيرة في تجهيزها وتزويدها بالمرافق العصرية التي تجعل إقامةَ المستحمين فيها مريحة .

86) حمةُ وشتاتة : تقع هذه الحمة خلف جبل زالغ غير بعيدٍ عن باب وشتاتة ، ومياهُها دافئة غنية بمادة الكبريت ، لكنها ضعيفة ، فلذلك قَصر النفع بها على السكان المجاورين لها والمارين بها .

87) حمةُ أبي يعقوب : حمة واقعة في الشمال الغربي من فاس على بعد 15 كلم منها ، تعرفُ اليوم بمولاي يعقوب ، تنبعُ فيها مياه سخنة تشتمل على كميات وفيرة من الكبريت ، يؤمُها الناسُ من داخل المغرب وخارجه لعلاج الروماتيزم والأمراض الجلدية والزكام الدماغي .

88) لا تزالُ بناءات السلطان أبي الحسن المريني ماثلةً للعيان حتى الآن بحمة خولان المعروفة بحمة سيدي حرازم ، وخلفها شمالا أسس السلطان المنعمُ سيدي محمد بن يوسف العلوي داراً كان ينزل بها عند مجيئه للحمة للاستحمام ، وقد وسَّعها خلفه جلالةُ الملك الحسن الثاني نصره الله .

والجمال والتنظيف، حتى فضلوا الناسَ في العلوم والصناعات والمعرفة بأنواع التجارات.

ومنها أن أهلَها في العادة أقل خلافاً على أمرائهم، وأكثرُ طاعة لحكامهم وولاتهم.

ومنها قربُها من وادي سبو الذي تسيرُ منه القواربُ والسفنُ الصغارُ إلى البحر الأعظم، وتطلعُ أيضاً منه إلى ملقى واديها. وقد كانت دار صناعة لانشاء القوارب والسفن الصغار وغيرها بالموضع المعروف بالحبالات من أرض ابن عبودة التي بقرب ملقى وادي فاس في أيام الخليفة عبد المومن الموحدي حين أرادَ الوجهةَ لفتح المهدية سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة، قيل انها كانت عشرة، كذا أُلفِيَ بخط الفقيه محمد بن القاضي أحمد ابن الميمون القشتالي، وكذلك أمر مولانا المتوكل أبو عنان (89) رحمه الله بانشاء جفنين اثنين احدهما شيطي يجرُّ مئة وعشرين مجذافاً، والثاني شلير يجرُّ ستين مجذافاً بمنزل خولان ودفعا بوادي سبو إلى أن وصلا لمعمورة سلا في شوال سنة ست وخمسين وسبعمئة. وقد جلبَ لمولانا أمير المسلمين أبي الحسن برَّدَ الله ضريحه من نظر ألمرية بيلةٌ من الرخام الأبيض زنتُها مئة قنطار وثلاثة وأربعون قنطاراً، وسقت من ألمرية الى بلد العرائش الى أن طلعتْ بوادي قصر عبد الكريم، وحملت منه على عجل الخشب تجرُّها القبائل والرؤساء الى أن وصلت منزلَ أولاد محبوبة الذين على ضفة وادي سبو، ووسقتْ منه أيضاً الى أن وصلتْ الى ملقى وادي فاس، وحملت منه على عجل الخشب أيضاً يجرُّها الناسُ الى ان وصلتْ الى مدرسة الصهريج التي بعدوة الأندلسيين، ثم نقلتْ منها بعد ذلك بأعوام الى مدرسة الرخام (90) التي أمر ببنائها مولانا أمير المسلمين أبو الحسن رحمه الله

---

89) السلطان أبو عنان : فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى أبا عنان، وبكنيته يعرف، ويلقب بالمتوكل على الله، ولد بفاس في 12 ربيع الأول عام 729، وبويع في حياة أبيه بتلمسان وكان خليفته بها. يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الاول عام 749 ومات مخنوقاً يوم السبت 28 ذي الحجة عام 759 قتله وزيره الحسن بن عمر الفودودي، كان فارساً شهماً بطلاً شجاعاً فقيهاً يناظرُ العلماءَ الجلة فيصيب ويخطئهم، فصيحَ القلم كاتباً مرسلاً بليغاً بارعَ الخط. حقق اعمالا عمرانية عظيمة ببلاد المغرب العربي على صغر سنه، وقصر مدته.

90) هي التي تعرَف اليوم بالمدرسة المصباحية.

بجوفي جامع القرويين، وهي التي بوسط صحنها الآن ، وكان جلبها من ألمرية سنة خمس وعشرين وسبعمئة . فان قيل : كيف يتوصلُ الى وزنها ؟ فاعلمْ ان الذين جلبوها لما أرادوا تفريغَها من الجفن بالقصر المذكور عُلِّمَ (91) حدُّ الماء ، ثم فرغتْ وشحن في موضعها قناطرُ من الرمل بالوزن شيئاً فشيئاً الى أن بلغ الماءُ حدَّ ما عُلِّمَ في قاربها ، ثم فرغ الرمل ووزن فعُلم بذلك وزنُها ، كذا ذكر بعضُ الشهود الذين حضروا لذلك وكتبوا بذلك رسماً وعلم وطولع به مولانا أبو الحسن رحمه الله . وكذلك فُعل بأبواب المهدية التي صنعت من حديد في أيام عبيد الله التي زنةُ كل واحد منها ألفُ قنطار على ما ذكره البكري . وكان مولانا أبو الحسن رحمه الله يأمرُ بدفع الأحمال الكثيرة من خشب الأرز من منزل خولان الى معمورة سلا على صفة يعلمها البحريون .

ونهرُ سبو ينبعثُ من عنصر في مغارة دمثة مهولة في شعراء غامضة ببلاد فازاز (92) الى أن يمرَّ على بني واريثن . وهذه العينُ لا يدرك لها قعر ، وللبربر المجاورين لها تجاريب ، منها أن المريضَ اذا أرادوا أن يعلموا هل يبرأ أو يموت حملوه لرأس العين للموضع المهول فيغطسونه فيه حتى يقرب أن يطفى (93) ، ثم يخرجونه ، فان خرج على فيه دم فيستبشرون بحياته ، وان لم يخرجْ من فيه دم أيقنوا بهلاكه ، وهذا عندهم متعارفٌ لا يُنكر ، قاله صاحب (**الاستبصار**) . وهذا لا يفعله الا جاهل، وان فعلَه أحدٌ بأحدٍ فمات فانه يقتصُّ منه شرعاً ، وما سوى ذلك من فصول هذا الباب قد يدرك بالمشاهدة والتجربة .

---

91) بالتشديد اي وضعت له علامة .

92) فازاز : اسمُ الجبال الواقعة خلف مكناس والتي فيها الحاجب وأزرو وخنيفرة .

93) أي تخمد أنفاسه .

ويُتَصَيَّدُ من وادي سبو الشابلُ الكبير ، يطلع من معمورة (94) سلا الى رأس عين سبو ، ويتصيدُ فيه أيضاً الحوتُ الكبيرُ المعروف بالقرب (95) يكونُ في زنته القنطارُ الواحدُ وأزيد . ويوجدُ فيه الحوتُ المعروف بالشولي ، تصنع منه الألوان بأصناف البقل فلا تشمُّ فيه رائحة سمك .

ومنها ميلُ الناس لسكناها ، فقد سكنها جملةٌ من أصناف الناس وأهل الكور والأمصار ، وانتقل إليها منْ جميع البلدان القاصية والدانية ، فليس من أهل بلد ولا اقليم الا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومتصرف ، واجتمعَ فيها ما ليس في مدينة من بلدان الدنيا ، وأتتها التجاراتُ وأهلُ الصناعات من كل صقع حتى تكاملَ بها كل متجر ، وسيقت إليها خيراتُ الأرض ، وجمعت فيها ذخائرُ الدنيا ، وتكاملتْ فيها بركاتُ العالَم ، وذلك ببركة الإمام إدريس رضي الله عنه وبركةِ دعائه لأهلها ، وبالله التوفيق لا ربَّ سواه .

---

94) المعمورة : تعرف اليوم بالمهدية ، وهي واقعةٌ على الضفة الجنوبية لنهر سبو عند مصبه في المحيط الأطلسي على بعد 40 كلم الى الشمال من الرباط ، وهي قرية عتيقة حلتْ محل مستعمرة قرطاجنية ، ولما جاء الاسلامْ انتعشت ولاسيما في أيام الدولتين المرابطية والموحدية حيث انشئت على ضفة الوادي الملاصقة لها دورٌ لصناعة السفن التجارية والحربية ، كما بنيت قصبتها وحصنت للحيلولة دون هجوم الأساطيل النصرانية على الشواطىء المغربية ، وفي سنة 1515 مثل أمامها اسطولٌ برتغالي يتركب من 200 سفينة نزل جنوده الى البر واحتلوا القصبة ، ولكنهم طردوا بعد مدة وجيزة ، ثم غزتْها إسبانيا سنة 1614 م باسطول يتألف من مئة سفينة . وظلوا بها الى أن طردهم السلطان الجليل مولاي اسماعيل بن الشريف ، وفتح مرساها للتجارة مع الخارج ، ولكن شأنها بدأ يضعف الى ان انتعشت قليلا في بداية هذا القرن ، ثم ضعفتْ نهائياً عند انشاء مرسى القنيطرة ، ولكن ساحلها رملي جميل تعمره الأسرْ في فصل الصيف للاصطياف .

95) ما زال هذا النوع من السمك معروفا باسمه الى اليوم ، وهو يكبرُ ويصغرُ حسب فصول السنة والموالد التي يولد فيها . ولا يبالغ الجزنائي في زنته .

الباب الثاني

في ذكر مَن أدارها بالأسوار وزادَ فيها الزيادات وذكرِ جامعَيْها العتيقَيْنِ وما انتهت إليه من الدور والأرحى والحمامات

لم تزل مدينةُ فاس كلأَها الله تعالى من حين أسست - دارَ فقه وعلم وصلاح ودين ، وهيَ قاعدةُ بلاِد المغرب وقطرها ، ومركزها وقطبها ، وهيَ كانت دار الأدارسة الحسنيين الذين اختطوها ، ودارُ مملكةَ زناتة وغيرهم ممن ملكَ المغربَ في الاسلام ، ونزلها لمتونة في أول ظهورهم على المغرب ، ثم بنوا مدينةَ مراكش فانتقلوا اليها لقربها من بلاد الصحراء ، ثم أتى الموحدون بعدهم فنزلوا مراكش واتخذوها دار ملكهم لقربها من بلادهم ، ولكونها في جوارهم وبين قبائلهم ، كذا قاله صاحب (المقباس) وغيره .

وما زالَ الأمراءُ والملوكُ في أثناء ذلك يزيدون البناءَ بفاس الى أن صار الناسُ يبنون بأرباض المدينتين ، واتصلت العماراتُ من كل الجهات الى استقلال أيام زناتة . فأدارَ منهم دوناس (96) بنُ حمامةَ بنِ المعز بنِ عطية بن زيري الأسوارَ على جميع أرباضها من كل الجهات ، وبنى بها المساجدَ والفنادقَ والحماماتِ وغيرَ ذلك ، وصارت مدينةً واحدة ، الى أن ولي بعده ابناه الفتوحُ وعجيسة ، فحصَّن الفتوحُ عدوةَ الأندلسيين ، وبنى

96) دوناس بن حمامة بن المعز بن عطيةِ المغراوي أحد ملوك زناتة ، وليَ فاس وأحوازها بعد وفاة أبيه سنة 440 وكانت أيامُه أيامَ هدنة ورخاء قضاها كلها في بناء فاس وتجديدها وترميمها ولم يشتغل بشيء غير البناء حتى تمصرت فاس وصارت من الحواضر الكبرى ، توفيَ بها في شوال عام 452 هـ .

بها قصبة لسكناه بالموضع المعروف بالكذان (97) ، وفتح بالعدوة باباً سماه باسمه ، وحصن أيضاً عجيسةُ عدوةَ القرويين ، وبنى بها قصبةً لسكناه بعقبة الصعتر وفتح هناك باباً سماه باسمه ، وكانت بين الأخوين عداوة ، وصار القتالُ بينهما وبين أهل العدوتين ، وكان قتالُهم بالموضع المعروف بكهف الوقادين ، وكثر الهرجُ بسبب ذلك في أرض المغرب ، واشتدَّ الغلاء ، الى أن ظهر أمرُ لمتونة في أطراف المغرب ، وظفرَ الفتوح بأخيه عجيسة فقتلَه . ولما ظفر به كرهَ أن يبقى البابُ باسمه فأمرَ بتغيير ذلك وترك اضافتِه اليه ، فأسقط الناس حرف العين من عجيسة وأدخلوا عوضاً منها الألف واللام فقالوا باب الجيسة وبقي كذلك الى الآن ، وبعد أن ظفرَ بأخيه أتاه لمتونةُ فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلى عن المدينة فوليَها معنصرُ ابن عمه ، الى أن دخلها لمتونة وقتلوا مَن بها من زناتة .

وفي أيام لمتونة هدمت الأسوار التي بُنيتْ أيام الأدارسة الفاصلة بين العدوتَين وبين أرباضهما ، وأصلحَ السورُ الذي بأعلا الوادي الكبير بقرب حوض السفرجل ، والسور الذي بأسفله حيث هي الرميلة الذي كان بناه دوناس حين أدارَ الأسوارَ على سائر أرباضها ، وجعل في ذلك أقواساً بشبابيك من خشب الأرز بالعمل المحكم لدخول الماء وخروجه ، وكان جعل بين العدوتين قناطرَ للمجاز من كل عدوة إلى الأخرى . الأولى قنطرة أبي طوبة (98) التي جددَ بناءها مولانا أميرُ المسلمين أبو سعيد رحمة الله ، والثانيةُ قنطرةُ أبي برقوقة (99) والثالثة قنطرة

---

97) الكذان في اللغة الحجارة الرخوة وربما كانت نخرة ، وحيُّ الكذان ما زال معروفاً بهذا الاسم الى اليوم من عدوة الأندلسيين ، وسُمّي كذلك لوجود الكذان به نظراً لقربه من وادي بوخرارب .

98) هي القنطرة الواقعة خارج باب الجديد على وادي بوخرارب ، وقد أسست قنطرة اخرى بينها وبين قنطرة أبي برقوقة ، وهي قنطرة بوعجارة ، وذلك في عهد السلطان المرحوم سيدي محمد بن يوسف العلوي .

99) تعرف اليوم بقنطرة الرصيف ، ومنها يدخل لزنقة جزاء أبي برقوقة .

باب السلسلة (100) ، والرابعة قنطرة الصباغين (101)، والخامسة قنطرة كهف الوقادين (102)، والسادسة قنطرة الرميلة (103) ، وحين جاء السيلُ العظيمُ سنةَ خمس وعشرين وسبعمئة حمل قنطرةَ باب السلسلة وما والاها ، فأمرَ مولانا أميرُ المسلمين أبو سعيد رحمه الله ببناء قنطرة باب السلسلة وقنطرة الصباغين فبنيتا على حالتيهما الآن ، وبنيت قنطرةُ كهف الوقادين على يديْ مَن تطوع بذلك من المسلمين ، وبقيتْ قنطرةُ الرملية مهدومةً إلى الآن ، وما زال كبيرُ لمتونة وأميرُها يوسفُ بنُ تاشفين يؤكدُ في زيادة المساجد بفاس وسقاياتها وحماماتها وخاناتها وإصلاح أسوارها ، وأقدمَ من قرطبة جملةً من صناع الأرحى فبنوا منها كثيراً إلى أن انتهت إلى ما يذكرُ ان شاء الله تعالى . وفي أيامه صارت العدوتان قطراً واحداً ، وفي أيام ولده بُنيَ سور القوارجة التي بين باب الجيسة وباب يصليتن (104) على يد قاضيه عبد الحق ابن معيشة بمال وظفه على أهلِ مدينة فاس حسبما ذكره صاحب (المقباس) .

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة أمرَ الأميرُ عبد المومن بن علي (105) يهدم أكثرِ أسوارِ فاس ، وقال : إنا لا نحتاجُ إلى سور ،

---

100) تعرف اليوم بقنطرة الطرافين ، وهي تصل زنقة باب السلسلة بزنقة النخالين .

101) تعرفُ هذه القنطرة اليوم بقنطرة الصباغين ، وبقنطرة ساباط الهيلدريين وعن يمين الخارج منها من عدوة القرويين دكاكين الصباغين الأثرية التي أنشأها بنو مرين ، وقد ظلت تلك الدكاكينُ تقومُ بالصبغ منذ العصر المريني الى اليوم ، لكن دكاكينها بدأت في السنين الأخيرة تتحول الى مهن أخرى غير الصباغة .

102) هيَ القنطرةُ المعروفةُ اليومَ بقنطرة بين المدن .

103) لا وجودَ لهذه القنطرة اليوم ، اذ لم يقدم أيُ واحد من الملوك والأمراء على بنائها منذ تهدمت سنة 725 هـ .

104) ما زال حيُ عين يصليتن معروفاً الى اليوم بهذا الاسم في عدوة القرويين ، ولم يكنْ به باب إلى فتح منذ أربعة أعوام عندما أُنشيء طريق السيارات الجديد الواسع الرابط بين باب الجيسة وباب المحروق .

105) عبد المومن بن علي الكومي الزناتي : مؤسس الدولة الموحدية بعد موت شيخه محمد المهدي بن تومرت داعية الموحدين ، ولد بتاجرة قربَ ندرومة بجبال ترارة عام 495 وبويعَ بعد وفاة المهدي سنة 524 هـ وصفا له الملك عام 541 وتوفيَ عام 558 وحمل الى تينمل فدفن بها الى جنب قبر المهدي .

إنما أسوارُنا أسيافُنا وعدلنا ، وبقيتْ الأسوارُ كذلك إلى أن بدأ ببناء ما هدم يعقوبُ المنصور ، وكمله ولده محمد الناصر ، وبنى قَصبةَ الوادي (106) التي بها الآن ، وكذلك بنى بابَ الشريعة على حالته الآن . كما بنى مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، سورَ زيتون ابن عطية (107)، وأقام البرجَ العظيمَ ، هناك وكتبَ فيه اسمه .

وبفاس الآن من الأبواب : بابُ الفتوح ، وبابُ الخوخة ، وبابُ بني مسافر ، وبابُ الجيسة ، وبابُ يصليتن ، وبابُ الشريعة ، وهوَ بابٌ يدخله الفارس بالعلم العالي ، والرامحُ بالرمح الطويل ، من غير أن يميل العلم ولا ينثني الرمح لارتفاعه . وسميَ بابَ المحروق من أجل ان العبيدي القائمَ بجبالِ ورغة لما أن ظفرَ به وقتل علقَ رأسَه على باب الشريعة المذكور وأحرق جسده في وسطه وذلك يومَ ركبت مصاريعُه بأمر الأمير محمد الناصر بن المنصور سنة ستمئة ، وبابُ المطمر (108) المتصل من أبوابها بالقصبة ، وباب الوادي (109) الذي هوَ لدخول الخلفاء وخروجهم المتصل أيضاً بالقصبة ، وبابُ الحديد ، وبابُ زيتون ابن عطية ، وبابُ الجيزيين ، والمفتوحُ منها الآن خمسة ، وسائرُها غلقَ في أيام المجاعة .

وانتهتْ مدينةُ فاس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من الغبطة والعمارة والرفاهية والدعة والأمن والعافية ما لم تبلغهْ مدينةٌ من مدن

---

106) هي قصبة كانت موجودة بباب بوجلود الحالي ، ولا يزال أحدُ أبراجها ماثلا حتى الآن للعيان ، وهو ملاصق لجامع بوجلود . وبهذه القصبة كان يسكنُ ملوك بني مرين قبل بناء المدينة البيضاء : فاس الجديد .

107) زيتون ابن عطية : هو الزيتون المغروس خارج باب الجديد . ويسمى وادي فاس في هذا المكان وعند دخوله الى المدينة منه بوادي الزيتون الى اليوم ، وسيأتي للمؤلف في الفقرات التالية أن بابَ زيتون ابن عطية هو بابٌ واقعٌ بين باب الحديد وباب الجيزيين الذي هو باب الحمراء اليوم . فتيعنَ أن يكونَ بابُ زيتون ابن عطية هو الباب الجديد .

108) يظهر أن هذا هو الباب الصغير المجاور لباب بوجلود الحالي .

109) لعله هو الباب الذي يصلُ قصبةَ بوجلود بجنان السبيل ، الواقع بين ثانوية مولاي ادريس وقصر البطحاء.

المغرب ، لاسيما في أيام المنصور الموحدي (110) وولده محمد الناصر (111) كانت المساجدُ فيها سبعمئة وخمسة وثمانين ، ودورُ الوضوء اثنتين وأربعين ، والسقايات ثمانين ، والحمامات ثلاثة وتسعين ، وارحى الماء أربعمئة واثنتين وسبعين ، ودور السكنى تسعة وثمانين ألفا ومئتين وستة وثلاثين ، والمصاري (112) سبع عشرة ألفاً وإحدى وأربعين ، والفنادقُ أربعمئة وتسعة وستين ، والحوانيتُ تسعة آلاف ومئتين وثمانين ، وقيساريتان (113) اثنتان ، واحدة في كل عدوة منها . وداران للسكة واحدة في كل عدوة منها . والأطرزة ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ، ودور عمل الصابون سبعاً وأربعين ، ودور الدباغ ستاً وثمانين ، ودورُ الصباغ مئة وست عشرة داراً ، ودورُ سبك الحديد والنحاس اثنتَيْ عشرة ، ودورُ عمل الزجاج إحدى عشرة ، وكوش الخبز مئة وخمساً وثلاثين ، وأفران الخبز ألفاً ومئة وسبعين ، وأحجارُ عمل الكاغد أربعمئة ، كل ذلك بداخل المدينة، ودور الفخارة ثمانمئة وثمانا وثمانين بخارج المدينة ، نقل ذلك عن المشرف علي بن عمر الأوسى قال نقلتُه من خط الغريغر مشرف المدينة في أيام الناصر بن المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمئة . وكان إذ ذاك بضفة الوادي الكبير من حيثُ يبتدىء دخولُه إليها إلى أن يخرجَ منها دورُ الصباغين وحوانيتهم ودورُ الدباغ والصابون وحوانيت الخناقين والقصابين والسفاجين والمواضعُ المعدةُ لطبخ الغزل والفواليـن

---

110) الخليفة العظيم يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي الكومي ثالث خلفاء الموحدين ، يكنى أبا يوسف ، ويلقب بالمنصور ، ولد سنة 545 وبويع بعد وفاة والده يوسف العسري سنة 580 وتوفي سنة 595 .

111) محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي الملقب بالناصر رابع خلفاء الموحدين، ولد سنة 576 وبويع سنة 595 وتوفي سنة 610 وفي عهده حدثتْ واقعةُ العقاب التي انهزمَ فيها المسلمون، فضعف بعدها أمرُ الدولة الموحدية ، وانفصمتْ عرى وحدة أقطار المغرب العربي ، وبدأ النصارى الاسبان يستولون على مدن الجزيرة الأندلسية مدينة مدينة إلى أن صفتْ لهم في نهاية القرن التاسع الهجري .

112) جمع مصرية دويرة تبنى فوق الحوانيت ونحوها ، وهو نوع من المنازل كان معروفاً بمصر فنقل الى المغرب وعرف بنسبته اليها .

113) جمع قيسارية ، سوق الثياب ، وأصلُها قيصرية .

وغيرهم ممن يحتاجُ الى الماء ، وبأعلا ذلك أطرزة للحاكة ، ولم يكن بالمدينة وادٍ يظهر ، حاشا الواديّ الكبير ، وباقي أنهارها بنيَ عليها حوانيت ودور وبنى على ذلك مصار ، ولم يكن بداخلها رياضٌ ولا بستان حاشا زيتونَ ابن عطية، وخرب أكثرَ ذلك في أيام المجاعة والفتنة التي كانت في أيام العادل (114) وأخيه المامون (115) ، وذلك عشرون سنة إلى أن ظهرتْ الدولةُ المرينيةُ أطال الله أيامها ، ونصرَ اعلامها فانجبرت البلاد ، وتأمنت الطرقُ والعباد ، كذا نقل من (**الأنيس**) .

وأما بناءُ جامعَيْ القرويين والأندلسيين وذكرُ الزيادات فيهما إلى هذا الوقت والحين ـ فذكرَ أبو القاسم ابن جنون (116) وغيرُه في (**تاريخ فاس**)أنه لما كثرَ الواردون عليها في أيام الأمير يحيى (117) بن محمد بن ادريس بن ادريس رضيَ الله عنه كان ممن قدمَ عليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهري القروي ، ونزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه ، فماتَ وتركَ بنتين وهما : فاطمة المدعوة بأم البنين ، ومريم ، وتحصلَ لهما بالميراث مال كثير طيب ، ورغبتا أن تصرفاه في وجوه من البر ، فعَلمتا أنَ الناسَ قد احتاجوا لبناء جامع كبير في كل عدوةٍ من فاس لضيق الجامعَيْن القديمَيْن المذكورَيْن ، فشرعتْ فاطمة في بناء جامع عدوة القرويين، ومريم في بناءِ جامع الأندلسيين .

أما جامعُ القرويين فكانَ الشروعُ في حفر أساسه للأخذ في أمور بنائه يومَ السبت مهل شهر رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومئتين.

---

114) محمد بن يعقوب المنصور الملقب بالعادل سابع خلفاء الموحدين ، بويع سنة 621 وتوفيَ سنة 624 .

115) ادريس بن يعقوب ثامن خلفاء الموحدين الملقب بالمامون ، بويع سنة 624 وتوفي بمراكش عام 629 .

116) وفي نسخ جنون ، قال السيد عبد السلام ابن سودة في (**دليل مؤرخ المغرب**) 1 : 37 : لم اقفْ على وفاته ولا مَن ترجم له ، ولعله من رجال القرن السادس .

117) خامس ملوك الدولة الادريسية ، بويع في شهر رجب سنة 234 بعهد من أخيه علي بن محمد بن ادريس ، فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده ، وفي أيامه كثرت العمارةُ بفاس ، وقصدها الناسُ من الأندلس وافريقية وجميع بلاد المغرب .

وكان بموضعه الذي بني فيه أرضٌ لعمل الخضر وفيه أشجار لرجل من هوارة كان قد حاز ذلك أبوه بوجه صحيح حين أسست المدينة ، فاشترتها منه فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري القروي ودفعت الثمنَ من مالها الحاصل لها من ميراثها في ابيها، وتطوعتْ ببناء الجامع المذكور ، فحفر في أرضه وأخذ منها الترابُ والكذان لبنائه ، وحفرَ بها بئر لأخذ الماء لبنائه ، ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه الامامُ ادريسُ بن ادريس رضيَ الله عنه بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم في ذلك ، وبنيَ من أربعة بلاطات من قبلة الى جوف ، في كل بلاط اثنا عشر قوساً من شرق الى غرب ، وجعل محرابه بمقدّم البلاط الذي أمامَ الثريا الكبرى الآن ، وجعل بمؤخره صحن صغير ، وبمؤخره صومعة حيث هيَ العنزةُ الآن ، وتمّ على نحو ما أرادته ، وذلك بمطالعة الأمير يحيى ، ثم صلتْ فيه شكراً لله تعالى الذي وفقها لذلك ، ولم يزل على نحو ما بُنيَ في أيام الأدارسة الى أن كثُرت العمارات ، واتصل البناء في أرباض المدينة من سائر الجهات، وجرى أمرُ زناتة بأرض المغرب في سنة سبع وثلاثمئة فأزيلتْ الخطبةُ من جامع الشرفاء لصغره ، وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره ، وصنع له منبر من خشب الصنوبر ، وكان أول خطيب خطبَ به الشيخ الفقيه الصالح عبد الله بن علي الفارسي، وقيل سنة احدى وعشرين وثلاثمئة . وان الذي أقام الخطبةَ به اذ ذاك هو الأميرُ حامد بن حمدان الهمداني عاملُ عبيد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب بعد أن كان تغلبَ عليها مصالة بن حبوس القائم بدعوة الشيعي ، ولم يزل كذلك الى أن تقوى ظهورُ زناتة بالمغرب باستدعاء الناصر لدين الله لكبرائهمْ ورؤسائهم ، وإكرام ساداتهم وقضاء حاجاتهم ، وحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ، ممداً لمن عجز برجاله ، مقوياً لمن ضعف بماله ، إلى أن هوت إليه أفئدةُ كثير منهم ، بين مصحح في ولايته ، ومستجيب لدعوته ، مغتنم لعطيته ، مستعين بقوته على مدافعة مَن هدَّ ركنه من الأدارسة والشيعة ، فقام زناتة بدعوة الناصر لدين الله وتغلبوا على بعض بلاد المغرب ، وبايعه أهلُ مدينة فاس ممن بايعه حسبما ذكره صاحب (المقتبس) ، فولى عليها عاملا له من زناتة ، يُعرفُ بأحمد بن أبي بكر الزناتي ، وكان من أهل الفضل والدين ،

فكتب إلى الناصر يستأذنه في بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاج
الناس لذلك فأذنَ له ، وبعث إليه بمال كثير من أخماس غنائم الروم ، وأمر
أن يصرفه فيه ، فأصلحه وزادَ فيه أربعَ بلاطات من الغرب وخمسة م
الشرق ، وثلاثة من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه ، وجع
بمؤخره الصحن الذي به الآن ، وفي غربي هذا الصحن بلاطان ، وف
شرقيه كذلك ، وفي جوفيه بلاط واحد ، بعد أن هدم الصومعةَ التي كان
به لكونها متطامنةَ الإشراف وبنى الصومعةَ التي به الآن .

ولما شرعَ في بنائها جعلَ سعةَ كل وجه واحداً وعشرين شبراً
ويصعدُ لها على مئة درجة ودرجة ، وجعل بابها من جهة القبلة ، وغشيه
بعد ذلك بصفائح النحاس الأصفر ، وتمَّ العمل في بنائها على يد أحمد ب
أبي بكر الزناتي المذكور في شهر ربيع الأول سنةَ خمس وأربعين وثلاثم
حسبما كُتب في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن ، وجُعلَ في أعلا
قبةٌ صغرى ووضع في ذروتها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد
وركب في الزج المذكور سيف الامام ادريس بن ادريس رضيَ الله عنه

وسببُ جعله هناك أن الأميرَ أحمد بن أبي بكر المذكور لما فر
من بنائها اختصمَ اليه بعضُ حفدةِ إدريسَ في السيف المذكور ، وطلب ك
واحد أن يمتازَ به ويحوزَه لنفسه ، وطال النزاع في ذلك ، فقالَ الأميرُ
هل لكم ان تسلموه لي وتتركوا النزاع فيه ؟ قالوا له : وما تصنعُ به ؟ قا
لهم : أجعله في أعلا هذه الصومعة تبركاً به وليكون لكم ذكرٌ بسببه ، فقال
له : قد وهبناه لك طيبةً به نفوسُنا ، فجعله في ذروتها . وقد نظمَ شعر
الوقت في هذا السيف مقطوعاتٍ كثيرة ، فكان أولَ مَن افتتح فيه بابَ المقا
للشعراء شاعرُ هذا الأوان ، وحائزُ قصب السبق في هذا الميدان ، أحم
بن عبد المنان (118) فقال :

---

118) احمد بن يحيى بن عبد الله بن عبد المنان الخزرجي الفقيه الأديب الكاتب من أهل فاس
توفي عامَ 792.

أنكرَ السيفَ بالمنار بفاس قائلٌ إن ذاك داعي اغتمام
لا يرعك الحسام سُلَّ عليها جنةُ الخلدِ تحتَ ظلِّ الحسام

ثم تلاه صاحبنا مُحمد الماجري فقال :

يقولون زجراً إن فاساً قضى لها بذلتها سيفُ المنار المشيد
لقد أخطأوا في زجرِهم، ضلَّ سعيُهم، هل العزُّ إلا تحتَ ظلِّ المهند؟

ثم تلاه صاحبنا الاستاذ محمد المدعو بمنديل بن آجروم (119) فقال :

شاموا بفاس سيفَ ادريسهم فوق المنار لا لأمر مخوف
بل أشعروا بقول خير الورى جنتكم تحتَ ظلال السيوف

وقال محمد بن عبد الرحمان رحمه الله تعالى :

بسيف منار بفاس غدتْ محاسنُها دانياتِ القطوف
فيا زاجرَ الغمِّ عفو الاله وجنته تحتَ ظلِّ السيوف

وقال أيضاً رحمه الله :

وما خص ادريس المنار بسيفه لغمٍّ ، ولكنْ كيْ يعمَّ نداؤه
مشيراً أجيبوا داعيَ الله تأمنوا ومَن لمْ يجبْ داعيه هذا جزاؤه !

وقال الفقيه العدل عبد الرحمان المليلي :

ألمْ بفاسٍ ولا تسمعْ لقائلهم سيفُ المنار كساها ثوبَ مكتئب
أما ترى الشمسَ رانتْ تحت كاتبها والسيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب !

---

119) محمد بن محمد بن أجروم الصنهاجي ، يكنى أبا المكارم ، ويلقبُ بمنديل ظ ترجمته في جذوة الاقتباس ص 145 ودرة الحجال 2:322.

وقال الأديبُ المجيد أحمدُ الدباغ :

سيفُ ادريس بالمنار بفاس ليس للغمّ ، لا ولا للمخافه
إنما كان وضعه السيفَ فيها مُعلماً أنها مقرُّ الخلافه

وقال الأمير الرئيس الأوحد اسماعيل بن فرج بن الأحمر (120).

وما السيفُ في رأس المنار لذلة بفاس ، ولكن أمره أيما أمر
رآها ابنُ ادريسٍ مقرّ خلافة فجرده عزماً لأملاكها الغُر

وقال الفقيه العدل ادريس ابن رشيد :

سلْ إدريسُ بالمنار حساماً منبئاً ذاك عن شديد العقاب
داعياً للصلاة إن لم تجيبوا فحقيقٌ الجزاءِ ضربُ الرقاب

وقال صاحبنا الفقيه عبد الغفار :

ذكرتُ ولم أكن للذكر ناس عجائبَ سيف إدريسٍ بفاس
فلم يكُ بالمنار سُدًى ، ولكن ليدفعَ عن حماها كلَّ باس

وقال صاحبنا أبو الفضل ابن باشر رحمه الله :

قل لمَنْ أنكرَ الحسامَ بفاس وادعى الغمَّ قولَ ذي تجريح
سيفُ ادريس في المنار شهيرٌ شهرة الدين بالأذانِ الصحيح

وقال صاحبنا محمد بن علي الفخار شُهر بالحباك :

شهرة المشرفيّ فوق المنار عزةٌ للورى ودين النبيّ
سيفُ ادريس مُخمدٌ للأعادي وانتصارُ الملوك في المشرفيّ

---

120) اسماعيل بن أبي الحجاج يوسف المعروف بابن الأحمر الأديب المؤرخ الكاتب توفي سنة 807 ظ ترجمته في جذوة الاقتباس ص 99.

وقال عبيد الواحد الزيتوني :

مَن يحسد الناس في فاس يقول لهم بسيف إدريس غم الناس في فاس
تعساً لقائلهم ، بل سيفُه شرفٌ علا كما قد علا إدريسُ في الناس

وقال الأديب سعيد بن ابراهيم الكفاد عُرف بشهبون :

لإدريس سيفٌ أظهرَ الدينَ والهدى بأفق منار للأذان تشيَّدا
فمَن ظنَّ أن الذلَّ أورثنا به فهلْ ذل إلا ظالمٌ ضلَّ واعتدى

ما ذكرنا من نظم أصحابنا في هذا السيف غيرُ موافق لما ذكر المؤرخون من كونه لم يجعل هناك إلا لبقاء ذكر الامام إدريس رضيَ الله عنه ، وقد نظمت في هذا المعنى :

سيفُ إدريسَ منتضى بالمنار لا لغمِّ النفوس والأغيار
إنما جعلُه هناك ليبقى خالداً ذكره مدى الأعصار

فلنرجعْ لما كنا بصدده من تتميم الكلام في هذا المنار ، وذكر الزيادات فيه على وجه التقريب والاختصار .

ثم جعل تحت القبة المذكورة قبة أكبر منها لجلوس المؤذنين ، ومبيت المراعي منهم لأوقات الليل وانصداع الفجر لاقامة الأذان ، وبندائه يقتدي سائرُ المؤذنين بصوامع المدينة يقلدونه على العادة المنتقلة من قديم الزمان ، ولهم بمواضع منها بلاطات رخام موضوعة بالحكمة ، وفي وسط كل بلاطة قائمٌ يستدل بامتداد ظله على خطوط في البلاطة بطول أزمان النهار ومرور ساعاته ، وقد نصبَها أهلُ العلم بالهيأة عن نظر وموافقة وهيَ لهم من أفضل الهدايات ، وفي عطفات أدراجها سرج زاهرة يمرُّ عليها الليل كله يستعان بها على رعْي الفجر وأجزاء الليل ، ولم تزلْ كذلك إلى أن ولَيَ القضاءَ الفقيهُ الخطيب محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكنول ، فعمل في أيامه المعدل محمد ابن الحباك بدناً من فخار بالقبة العليا وفيه الماء

وجعل على وجه الماء طنجيراً من نحاس فيه خطوط وأثقاب ، ويخرج منها الماءُ بقدر معلوم إلى أن يصلَ للخطوط فتعلم بذلك أيضاً أوقاتُ الليل والنهار في أيام الغيم ولياليها ، وذلك في سنة خمس وثمانين وستمئة ، ثم غفلَ عنه وأهمل ، وفي السنة المذكورة شرع في إصلاح الصومعة المذكورة وتبييضها بالجبص والجير بعد أن سمر فيها من خارجها ثلاثة قناطير وربع قنطار ونصف ربع قنطار من مسامير الحديد ، ودلكت بعد تبييضها حتى صارت كالمرآة المصقولة بعد أن كانت الطيور تعششُ في فرج كانت بها ، فانقطعت أذايتها ، وبني أيضاً الغرفة المطلة على باب الصومعة وانتقل إليها مبيت المراعي للأوقات وجلوس القوَمة بها . أما المنجانة التي صنعت بهذه الغرفة لمعرفة الأوقات فأن الشيخ المعدل محمد بن عبد الله الصنهاجي النطاع أحدثها هناك ، ورسمها له محمد بن الصدينية القرطسوني، وتطوع بعضُ المسلمين بالإنفاقِ فيها سنةَ سبع عشرة وسبعمئة . وذلك أنه جعل في ركن الغرفة عن يسار المستقبل جبحاً من خشب الأرز ، وجعلَ في داخله بدنَيْن كبيرين من فخار أحدهما أعلا من الآخر ، وجعل الماء في الأعلا منهما، وبأسفله أنبوب من نحاس مموه بالذهب محكم العمل يهبط منه الماء في البدن الأسفل بقدر معلوم ، وجعل جوفَ الجبح مفطساً ، ورسم في جانبيْ التفطيسة بروج الأفلاك والأشهر العجمية والساعات ودقائقها وجعل في الوسط مسطرة رسم فيها أيضاً الساعات ودقائقها وأوقات الليل والنهار وجعل المسطرة معلقة في خارج من الجبح يجري في حفر التفطيسة المذكورة طالعاً وهابطاً ، وجعل على وجه الماء الذي يجتمعُ في البدن الأسفل جسماً مجوفاً من نحاس على هيأة الأترجة معلقاً في الطرف الذي يلي من الغلور ، فاذا طلع الجسم بطلوع الماء الذي يجتمع في البدن الأسفل طلع طرف الغلور الخارج من التفطيسة وطلعت بطلوعه المسطرة ، وكلما طلعت بطول الأزمان ظهرَ فيها الوقت المطلوبَ ، فاذا تمَّ النهارُ والليلةَ المقبلة له رُد الماء من البدن الأسفل للبدن الأعلا ، وعلق المسطرة كما كانت ، ثم غفل عن ذلك إلى أن تقدم للنظر في الأوقات والرعاية للمؤذنين محمد بن محمد بن العربي رحمه الله سنة سبع وأربعين وسبعمئة ، فجدد المَنْجانةَ المذكورة

على وجهٍ أتقنَ من الوجه الأول ، ولم يزلْ يجتهدُ في ذلك صدرَ ايالة مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله ، فأكثر الاجتهاد في خدمته ، وجعل خارج الجبح المذكور تجاهةِ المستقبل له دائرة وعليها شبكة كشبكة الأسطرلاب ورسومه تدور متى طلعت المسطرةُ المذكورةُ ويعرف بها أيضاً أوقاتُ الليل والنهار ، وأعدَّ هناك مع ذلك رمليات لاختبار الأوقات ، وجملة أسطرلابات موقف ذلك على مَن يستعمله وينظر فيه أجزاءَ الليل والنهار .

وقد صعد مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله الصومعة ليعتبرَ في المدينة وترتيبها ، ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسنه وأنعم على الناظر فيه بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الاسلام وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمئة . وأمرَ نضَّرَ الله وجهه بأثر ذلك أن يجعَلَ بأعلا الصومعة المذكورة صارٍ وينشر فيه علم أبيض في أوقات صلاة النهار وفنار فيه سراجٌ زاهرٌ لأوقات صلاة الليل ليستدلَّ بذلك مَن بعُدَ عن المدينة ولم يسمع النداء ، وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات وبما يتعلقُ بها من وجوب الصلوات ، ويتركب عليها من الحقوق في وجوه شتى من العادات والعبادات.

نورٌ به علمُ الايمان مرتفــعٌ	للمهتديــن بــه للحــق إرشاد
يأتونَ من كل أوب نحوَه فلهم	لديْـه للرشد إصدارٌ وايــراد

وقد نظمَ في معنى ذلك صاحبنا الفقيه محمد بن عبد الرحمان المتقدم الذكر:

سرُّ فاس لفارس قد بدا في	وضع ادريس بالمنار حسامــه
لهـم العـز للنـداء فــأورى	نــاره معلمــاً وشال علامـــه

وقال عبد الواحد الزيتوني المتقدم أيضاً :

رفع الفنار أبو عنان فـارس	أعلا المنار وزاد فيه علاما
شهر الأذانُ بذاك شُهرةَ رافع	لظهور دين الله فيه حساما

ومما قيلَ في المنجانة لأحد الشعراء:

روح من الماء في جسم من الصفر ... مولد بلطيف الحسن والنظر
مستعبر لم يغبْ عن عينِه سكنٌ ... ولم يبث من ذوي ضغن على حذر
وفي أعاليه حسبان يفضلُه ... للناظرين بلا ذهن ولا فكر
اذا بكى دار في أحشائِه فلكٌ ... خافَ المسيرَ ، وان لم يبك لم يدر
مترجم عن مواقيت يخبرنا ... بها، فيوجد فيها صادق الخبر
تقضى بها الخمسُ في وقت الوجوب وان ... غطى على الشمس سترُ الغيْم والمطر
وان سهرت لأوقات تُؤرقني ... عرفتُ مقدار وقت السهد والسهر
مجدد كل ميقات تخيره ... ذوو التميز للأسفار والحضر
ومخرج لك بالأجزاء ألطفها ... من النهار وقوت الليل والسحر
نتيجة العلم والافكار صوره ... بأحبذا بدع الأفكار في الصور

وقد صنعَ مولانا المتوكلُ أبو عنان رحمه الله منجانةً بطيقان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة التي أحدثها بسوق القصر من فاس (121) ، وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتنفتح طاق ، وذلك في أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى عام ثمانية وخمسين وسبعمئة على يد مؤقته علي بن أحمد التلمساني المعدل .

وقد ذكرَ الامامُ أبو حامد الغزالي رضِيَ الله عنه كيفيةَ المنجانة بأوعب ما يكون في كتاب (**المقصد الأسنى ، في شرح أسماء الله الحسنى**) عند شرحه اسمه تعالى (الحكيم) فانظره هناك .

يذكرُ أن بعضَ الخلفاء كان يشتدُ على قَوَمةِ الأذان في أن لا يصعد للأذان نهاراً إلا مَن عُرفتْ عفتُه ووثق به في غضٍّ بصره حوطةً على حرم المسلمين والاطلاع على عوراتهم ، وخوف فتنة تحدث بسبب مَن لا يومنُ في ذلك . وكان بعضُ مَن ابتلي بالنظر في الحسبة يأمرُ المؤذنين

---

121) هيَ المدرسةُ المتوكلية المعروفة اليوم بالمدرسة البوعنانية الكائنة في طالعة فاس ، وقد بناها لقاضي حضرته ومنشيء بيعته القاضي محمد المقْري التلمساني ، والطيقان والطسوس التي يشيرُ اليها المؤلف ما زالتْ موجودةً إلى الآن ، لكن العملَ بها بطلَ من زمن طويل .

بعمل عصائب على أعينهم حينَ الأذانِ بالنهار ، وقد جرت هيجاتٌ وفتنٌ بسبب ذلك يطول ذكرها ، فمن تلك الهيجة التي كانتْ بمراكش بسبب اطلاع مؤذن صومعة الكتبيين على دار ابن جامع ، وهيَ هيجة مشهورة لا يسع شرحُها لِما فيها من ذكر المجانة ، ومن تلك الهيجةُ التي كانت بفاس في يوم الجمعة الثاني عشر لشهر ربيع الأول سنة ست عشرة وسبعمئة بسبب الرجل الذي أزال السيفَ من أعلا ذروتِها ، وهيَ أيضاً مشهورة . وقال أبو العباس المبرد في كامله كان سببُ هدم خالد بن عبد الله منارات المساجد حتى حطّها عن دور الناس أنه بلغه شعرٌ لرجل من موالي الانصار ، وهو هذا:

ليتني في المؤذنين حياتـي	انهم يبصرون مَن في السطوح
فيشيرون أو تُشيرُ إليْهـم	بالهوى كلُّ ذات دل مليح

وأما القبةُ التي على العنزة فانه لما تغلبَ المظفرُ بنُ المنصور أبي عامر حاجب الخليفة المؤيد على فاس بعد مهاوشته لزيري (122) سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة بنى القبةَ المذكورة ، ونصبَ أعلاها طلسماتٍ وتماثيلَ كانت قبل ذلك على رأس القبة التي كانت بأعلا المحراب الأول بالجامع المذكور مما صنعه الأوائل ، ومنه ما صنعَ في أيام الشيعة ، فجعلَ الطلسماتِ على أعمدة من حديد ، منها طلسمُ الفار على صورة الفار ، فكان الفار لا يدخلها ولا يعشّشُ بها ، وان دخلها افتضحَ وقُتل ، ومنها طلسمُ العقرب ، وهوَ على صورة طائر منقارُه يشبهُ ذنبَ العقرب ، فكانت العقربُ لا تدخله ، وان أدخلها أحد في ثوبه خمدتْ فلا تتحرك ، ومنها طلسمٌ في تفافيح من نحاس

---

122) زيري بنُ عطية بن عبد الله الزناتي المغراوي الخزري ، ملك على زناتة سنة 368 وتشيع لأمويي الأندلس ، فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد على يد حاجبه المنصور بن أبي عامر ، بعد انقطاع ملك الأدارسة وبنى العافية المكناسيين فيه ، ثم بلغ المنصور أنه يتكلمُ فيه بالقبح ، فجهزَ اليه الجيوشَ وجوزها الى المغرب لمحاربته تحت قيادة ابنه المظفر ، فالتقوا بحوز طنجة فانهزم زيري وطارده جند الأندلس حتى ألجأوه للدخول الى الصحراء ، واستولى عبدُ الملك على فاس يومَ السبت منسلخ شوال سنة 387. وتوفي زيري سنة 391 .

للحية فلا تدخلُه ، وان دخلته افتضحتْ وقُتلت . وما يوجد فيه من الحياتِ فهوَ من عمار الجن ، وهذا لا ينكر ، فان الله سبحانه قد أجرى عادةً في ارتباط بعض الأشياء ببعضها اذا كانت في وقت مخصوص ، ولم يعلمْ قط على قديم الزمان وحديثه مَن لدغتْه فيه حية ولا عقرب ، وقد تعطل ذلك كله منذ أعوام ، وترك هذه الصور وإزالتها كان أولى ، لأنها ذاتُ ظل ، وذلك محرم في السنة اذا كانت كاملة الخلقة .

وأما السقايةُ والبيلةُ المستطيلةُ التي عن يسار الخارج من باب الحفاة الجوفية فان المظفر بناهما أيضا وجلب الماء لهما من وادي حسن الذي بأعلا المدينة من ناحية بابِ الحديد .

واما المنبرُ الذي صنعه المظفرُ بنُ المنصور بعد المنبرِ الذي صنع في أول ظهور زناتة فكان من عود الأبنوس والعناب وكان مكتوباً عليه :

باسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

هذا ما أمر بعمله الخليفةُ المنصور سيفُ الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن أبى عامر وفقهم الله تعالى ، وذلك في سنة ثمان وثمانين وثلاثمئة .

فكان يخطبُ عليه الى أيام علي بن يوسف بن تاشفين فترك وصنع المنبر الذي به الآن علي يَدِ القاضي عبد الحق بن عبد الله ابن معيشة الغرناطي ولم يتمّ في أيامه ، وتممّ بعد صرفه عن قضاء فاس على يد الفقيه القاضي بعده عبد الملك بن بيضاء القيسي ، وصنع من عود الصندل والأبنوس والنارنج والعناب وعظم العاج ، وكان الذي صنعه ونجره الشيخ الأديب أبو يحيى العتاد ، وكان ممن عمر عمراً طويلا حتى زاد على المئة سنة ، وكان اماماً في اللغةِ والشعر ، روى عنه جملةٌ من أهل فاس وغيرها، وكان جملةُ النفقة فيه من مال الأحباس المستخرج من النظار عليه ثلاثة آلاف دينار وثمانمئة دينار وسبعة أعشار دينار فضة ، وكان له غشاءان

أحدهما من جلد معزي والثاني من مقيرة كتان يزالان عنه في كل يوم جمعة، وذلك في شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة حسبما كتب في أعلا ذروته بالعاج .

والخطباءُ الذين خطبوا عليه منذ صنع في آخر دولة لمتونة وفي الدولة الموحدية وصدر الدولة المرينية أطالها الله الى زماننا هذا : أولهم الخطيب المبارك الصالح مهدي بن عيسى ، وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقاً وأفصحهم لساناً وأكثرهم بياناً ، وكانت موعظته تؤثر في القلوب لصدقه واخلاصه ، وكان يخطبُ في كل جمعة بخطبة لا تشبه أخرى ، فأقام يخطبُ مدة من خمسة أشهر ، ثم دخل الموحدون المدينة فصرفوه عن الخطبة ، وقدموا مكانه الفقيه الصالح علي بن عطية لأجل حفظه للسان البربري ، لأنهم كانوا لا يقدمون للخطبة والامامة الا مَن يحفظُ التوحيد باللسان البربري ، فخطب به إلى ان توفيَ في ثامن ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وخمسمئة . فخطبَ بعده الفقيهُ الصالحُ الورع يسكر (123) بن موسى الجوراني ، وهوَ أحد أشياخ المغرب في الدين والفضل والزهد والورع والمجاهدة والتقشف والايثار والصدقات كثير قيام الليل ، ولا سيما في رمضان ، قيلَ له ذاتَ ليلة لو روحت نفسك قليلا وأعطيتها حظها من النوم لكان أوفق لك ، فقال انما أريدُ راحتها ، ثم أنشد :

لا تجعلنْ رمضان شهرَ فكاهة	تلهيك فيه من الحديث فنونُه
واعلمْ بأنك لن تنالَ ثوابَه	حتى تكونَ تصومُه وتصونُه

123) يسكر بن موسى الجوراني ثم الغفجومي . نشأ بتاجنيت من ناحية تادلة ، ثم انتقل الى فاس واستوطنها وتفقه بها على أبى خزر يخلف الأوربي وسمع من أبي الربيع التلمساني وصاحب علي بن حرزهم ، ولقي أبا يعزى وأكثر من زيارته ، وكان اماماً عالماً في الفقه المالكي آية في الفقه عليه المدار فيه بمدينة فاس في عصره ، وله حواشي على المدونة ، وكان مع غزارة علمه ورعاً فاضلا صالحاً ذا جد واجتهاد في العبادة ، توفيَ ضحى يوم السبت 21 ذي القعدة سنة 598 ودفن بالقلة خارج باب الجيسة ، وهي التي فيها قبور المتأخرين من ملوك بني مرين . أنظر ترجمته في سلوة الأنفاس ‎J‏ : 164 و نيل الابتهاج ص 160 والتشوف ع 171 .

يُحكَى عنه أنَ أحدَ عمال الموحدين بفاس كتب للخليفة بمراكش أن أبا محمد يسكر لا يدعو له ، ووصلَه الخبرُ بذلك في حال حرج ، فبعث من حينه بأن يُشخَص ، وكان ممّن وقف بين يديْه أحدُ الصقالبة وبيده أطر بزين من حديد ، فأخذه منه وأمسكه بيده ، وقال لمَن حضرَ بهذا أقتلُه ، فقدرَ أنْ ضرب جبهةَ نفسِه بطرفِه ، فانبعث من الضربة دمٌ كثير ، فبادرَ الأطباءُ لقطع دمه بجملة من الأدويةِ فلمْ ينقطع ، وكانَ ممّنْ حضرَ عند الخليفة أحدُ الصلحاء ، فتفرسَ في ذلك وقال للخليفة إن كان هممتَ بسوء فتبْ منه ، فتذكرَ إشخاصَ أبي محمد فتابَ من ذلك وبودر بردُّ الذي بُعِث لأشخاصه ، فانقطعَ الدمُ من حينه .

وكانَ له نفعَ الله به غنمٌ وماشيةٌ كثيرةٌ ببلاده التي نشأ بها ورثها عن أبيه ، فكانَ يتصدقُ بكثير منها ، وكانَ يومَ خطبَ له يسيرُ عجمةٍ في لسانِه ، فرأى بعدَ ذلك أن يقدمَ خطيباً الفقيه الزاهد محمد بن حسن بن زيادة الله المزني ، وانفردَ هوَ بالإمامة ، ثم توفي محمد بن زيادة الله في ثالث وعشري جمادى الأولَى سنة اثنتيْن وسبعين وخمسمئة ، فخطبَ بعده الفقيه أبو القاسم بنُ محمد باستخلافِ أبي محمد يسكر له في ذلك إلى أن توفيَ في يوم الاثنين الرابع عشر لشهر رمضان المعظم سنة إحدَى وثمانين وخمسمئة ، فخطبَ بعده الفقيهُ الصالحُ الورعُ موسى المعلم لكتاب الله تعالى باستخلاف أبى محمد يسكر له في ذلك ، وكان موسى هذا يعلمُ الصبيانَ في المكتب الذي بقنطرةِ أبى الرعوس ، وكان له صوت شجيٌّ حسنٌ يُبكي كلَّ مَن سمِعَه يقرأُ القرآن، ولما كلف الخطبةَ داخلتْه دهشة ، وأطلقَ صبيانَه ، ثمَّ أخذَ في البكاء والدعاء، وقالَ : اللهمَّ لا تفضحْني بين عبادك يا أرحمَ الراحمين . ولما نادى المؤذنون النداءَ الأولَ لبسَ أحسنَ ثيابه وسارَ إلى الجامعِ ، فقعدَ في حجرتِه حتى الأذان، فقامَ وخطبَ ولم يتوقفْ ولم يتلجلجْ ، ثم دخل المحرابَ فأتى بالحكمةِ وفصلِ الخطاب في قراءته فبكى وأبكى ، فلما تمت الصلاة أقبلَ الناسُ إليه يُقبلون يديْه ويتبركُون به ، ولم يزلْ خطيباً إلى ان وصلَ الفقيهُ القاضي عبدُ الله بنُ ميمونِ الهواري فكانَ أولَ سؤاله لأهلِ المدينة عن خطيب جامع القرويين ، فذُكِرَ له فيه خير وأثنى عليه كثيراً ، فلما جاءت الجمعةُ رآه فلمْ تعجبْه صورتُه واستبشعها وقال فيه قولا ، فقالَ له بعضُ مَن حضره لو سمعتَ خطبتَه لأعجبك ، فلما سَمِعَ خطبتَه بكى وخشِع ، فلما فرغَ من صلاتِه

طلبَ منه المغفرةَ والدعاءَ ، وكان سريعَ الدمعة كثيرَ الخشوع ، الغالبُ عليه في أحوالِه الخوف ، وتوفِّيَ أبو محمد يسكر في الحادي والعشرين لذي قعدة سنةَ ثمان وتسعين وخمسمئة. وأقامَ إماماً بجامع القرويين أربعين سنةً لم يسهُ فيها بوجهٍ لكثرة حضوره في صلاته ، ولم يتركْ عقِباً ، وبنو يسكر الذين بفاس الآن ليسوا من عقبه ، وإنما اشتركوا في الاسم ، واجتمعَ لموسَى الخطبةُ والامامةُ إلى أن توفِّيَ في عشرين من صفر سنة تسع وتسعين وخمسمئة ، فخطبَ بعده ولدُه الفقيه عبد الله ، وسنُّه يومَ وليَ ثمان عشرةَ سنة ، وكان له حظٌ وافرٌ من الجمال والعلم والدين والفضل والورع وحسن الصوت ، ولم تكنْ له صبوةٌ في صغره ، ولم يزلْ مشتغلا بطلب العلم منقطعاً للعبادة ، ولما مرِضَ والده موسى قيلَ له استخلفْ ولدك للصلاة ، فقال : إن علمَ الله فيه خيراً فهوَ يستخلفُه ، فلما توفِّيَ موسى وحُمِلَ إلى قبره ووُضِعَ على شفيره للصلاة عليه ضجَّ الناسُ بالبكاء ، وطُلب مَن يُصلي عليه ، فقالَ قاضي البلد لولده تقدمْ فصلِّ على أبيك . فتقدمَ وصلَّى عليه وانصرفَ الناس ، وقدم في موضع أبيه واستحسنه الناس ، ولما أتَى الناصرُ بنُ المنصور مدينةَ فاس بعثَ إليه ليراه فوصله وسلَّم عليه ، وبقِيَ يحادثُه إلى أن حانَ وقتُ صلاة الظهر ، فقالَ له قمْ فصلِّ بنا ففعل ، فقالَ له الناصرُ مَن تركتَ في موضعك للصلاة بالناس ؟ فقال تركت به مَن هوَ خيرٌ مني ، وهوَ معلمي الذي قرأتُ عليه القرآن ، وذلك أنه لما وصلَني رسولُك تحيرتُ في أمر مَن يتقدم لذلك ، وقلتُ لا أعلمُ متى يكونُ الرجوعُ هل بالقرب أم بالبعد ، فسرتُ إلى معلمي وتذكرتُ قولَ الرسول عليه السلام : مولاك ثم مولاك مَن علَّمك آيةً من كتاب الله ، فأعلمتُه بالقضية واستخلفتُه في مكاني ، فقال له الناصر : جزاك الله خيراً ، ثم أمره بالانصراف وأتبعه مملوكاً بجملة من ثياب وصُرَّةٍ فيها ألفُ دينار ، فرجعَ إلى الناصر وشكره ودعا له وقبِلَ منه الثياب واستعفاه في أمر الدنانير فعفاه ، ولم يزلْ خطيباً وإماماً إلى أن توفِّيَ يومَ الأحد الحادي عشر لرجب سنةَ إحدى عشرةَ وستمئة ، فخطب بعده الفقيهُ عبدُ الله القضاعي ، وهوَ معلمُه المشارُ اليه باستخلافِه هوَ له ، فانتُقِدَ عليه وطُعِنَ فيه ،

وقال الناسُ إنه يبعثُ صبيانَ مكتبهِ للنفساء (124) ، وطولعَ بذلك مَن له النظرُ العام ، فقال إن الذي قدمه للصلاة أقرَّ بين يدي الناصر أمير المومنين أنه خيرٌ منه ، فتركوه على حاله ، فترك عبدُ الله القضاعي المكتبَ وصار معتكفاً بالجامع ساكناً بالدار الموقفة على أيمة الجامع إلى أن توفي يومَ الخميس الثاني والعشرين لرمضان سنة خمس عشرة وستمئة . فخطبَ بعده الفقيه الصالح محمد بن عبد الرحمان الشلبي ، وكان من أهل العلم والدين والفضل ، وكان له صوتٌ حسنٌ ومعرفةٌ بالأوقات ، توفِّي سنةَ تسع وعشرين وستمئة ، فخطبَ بعده الشيخُ الفقيهُ الصالحُ الحاج محمد بن عبد الله المدعو بالخطيب ، وكان مجابَ الدعوة ، توفِّي سنةَ خمس وثلاثين وستمئة ، فخطب بعده الشيخ الفقيهُ الصالحُ الورعُ عبد الغفار ستةَ أشهر وتأخر بنفسه ، وكان سببُ تأخره أن أحدَ الحساد أشاعَ عنه أنه يُنوِّنُ السلام ، فيقول السلامٌ (بالتنوين) عليكم . وبلغه ذلك فاستدعا جماعةً من وجوه المدينة وقال لهم : إنه بلغَني أنه يُقال إنني أنوِّنُ السلام ، وبالله ما فعلتُ ذلك قط ، ولكن انظروا لأنفسِكم مَن يكون عوضاً مني ، وبالله الذي لا اله الا هوَ لا تقدمتُ بأحد أبداً ، فخطبَ بعده الشيخُ الورعُ علي المعروف بابن الحاج ، يُحكَى عنه أنه لما تأخر عبد الغفار رغبَ الناسُ من الشيخ الصالح عبد الله الفشتالي أن ينظرَ لهم خطيباً فوعدهم ليستخيرَ الله تعالى فيمَن يصلحُ لذلك ، ونام فرأى في منامه الرسولَ عليه السلام يشيرُ عليه بعليِّ المذكور ، فلما كان في صباح اليوم جاءه الناسُ الذين وعدهم فقال لهم : عليكم بابنِ الحاج فامتنع ، ثم رغبَ

---

124) كان من العادات المتبعة أن فقهاءَ المسايدَ (الكتاتيب القرآنية) يبعثون صبيانَهم عند ما يتعسرُ الوضع على الحامل فيطلقون رداء يمسكون بأطرافه ويتجولون به في طرق المدينة مرددين بصوت عال : (أنفيسة طال بها النفاس ، يارب واعطها الخلاص ، حرمة طه ويس ، والقرآن الحكيم) ، وأصحابُ الدكاكين والمارةُ يُلقون التينَ والتمرَ والدراهمَ والبيضَ في الرداء ، ويزورُ الصبيان أشهرَ أضرحة الصالحين بالمدينة وينطمون الرداء في سقاياتها وخصاتها ، ولا يزالون يفعلون ذلك إلى أن تتكسرَ بيضةٌ أو عدد من البيض الموجود في الرداء فيعتقدون حينئذ أن الحاملَ وضعت ، أو أن النفساءَ تخلصتْ من أوجاعها ، فحينئذ يعودُ الصبيانُ إلى المسيد (الكتاب) ويستحوذُ الفقيهُ على ما في الرداء من مال ومواد .
وقد بطلت هذه العادة منذ نحو خمسين سنة .

المرةَ بعد المرةِ فأجاب وامتنعَ أن يسكنَ الدارَ المحبسةَ على أيمة الجامع ، وقال لا ينبغي أن تكونَ السكنى عوضَ الامامة ، وتورعَ عن ذلك ، فقيلَ له : إن لم تسكنْها تُعطلْ حُبساً عيَّنه المحبسُ لذلك ، فقالَ : أمهلوني لأنظر لنفسي مخرجاً ، ثم أجابَ لسكناها على أن يكونَ يخيطُ حصرَ الجامع ، ورأى أن ذلك عوضٌ من السكنى فالله ينفعُ به . وتوفِّيَ سنةَ ثلاث وخمسين وستمئة . فخطبَ بعده الشيخُ الفقيهُ الصالحُ المشاوَرُ الورعُ محمد بنُ يوسف المزدغي (125) ثم قدمَ ولدَه الفقيهَ أبا القاسم للخطابة واقتصرَ هوَ على الإمامة ، فخطبَ ولده عوضاً منه ، وكان لما دُعيَ للإمامةِ استرجعَ ثلاث مرات ، فقيلَ له في ذلك ، فقالَ : إنه أخبرني الشيخُ الحافظُ المحدث أبو ذرٍّ الخُشَني وأنا أروي عليه الأحكامَ في الحديث النبوي يومَ توفيَ الفقيه عبد الله بنُ موسى المعلم وولِيَ القضاعي عوضَه ونظرَ إليَّ ملياً ، ثم قال لي : إنك تلي الامامةَ للصلاة بالناس في جامع القرويين ، وذلك في آخر عمرك ، فلما دعيتُ للإمامة ذكرتُ مقالةَ الشيخ وعلمت أن أجلي قربَ فاسترجعت ، وأقام محمد المزدغي اماماً وولده أبو القاسم خطيباً الى أن توفيَ محمد في تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ خمس وخمسين وستمئة . فوليَ الامامةَ بعده الشيخ الفقيهُ علي بن حمد ، ثم توفِّيَ أبو القاسم المزدغي فخطبَ بعدَه الفقيهُ محمد بن زيادة الله المزيني إلى أن توفي ، وبإثره توفيَ أيضاً علي بن حمد رحمهما الله تعالى ، فخطب بعدهما بتقديم فقهاءِ المدينة وأشياخها الشيخُ الفقيهُ عبد الرحمان ابن مسونة ، وقدم للإمامةِ الشيخ الفقيه القارىء المتقن أحمد بن أبي زرع ، وأقاما في ذلك مدةً من سبعين يوماً ، فخطبَ بعد ذلك الشيخُ الفقيهُ محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكنول الجاناتي

---

125) محمد بن يوسف بن عمران المزدغي الفقيه الخطيب ، خطب وعلم وأفتى ، كان عالما بأصول الفقه والدين واللغة ، متصرفاً في جميع العلوم العقلية والنقلية ، دخلَ الاندلسَ وروى عن مشيخة أشبيلية وقرطبة ، له مؤلفات أتمّ بعضَها واخترمته المنية قبل اتمام البعض الآخر ، توفيَ بفاس ليلةَ الأحد 14 ربيع الأول عام 655 وهو ابن اثنين وثلاثين سنة أو في 19 ربيع الثاني على ما عند الجزنائي ، ودفن بروضة سلفِه من باب فتوح

اليفسحي من بني سدرا وأضيفَ له الامامة ، كل ذلك بأمر مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب سنةَ تسع وثمانين وستمئة ، إلى أن توفيَ في تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وستمئة ، فخطبَ بعده الشيخُ الفقيهُ الصالحُ يحيى بن عبد الرحمان بن محمد بن يوسف بن عمران بن الفتوح المزدغي في يوم الجمعة التاسع عشر لجمادَى الآخرة سنةَ أربع وتسعين وستمئة ، وتقدمَ للامامة الفقيهِ المحدثِ الأصولي أحمد بن راشد العمراني عن أمر مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب رحمه الله في موفَّي عشرين من جمادى المذكورة ، وأقامَ إماماً ثلاثة أعوام ، ثم صرف عنها وأضيفت الإمامة إلى يحيى المذكور إلى أن توفيَ في خامس وعشرين شوال سنة ست وعشرين وسبعمئة . فخطبَ بعده ولده الفقيه المحدث أبو الفضل محمد ، وكان حسنَ السمْت قليلَ الضحك ، مولعاً بقضاء حاجات الناس مَن عرف ومَن لم يعرفْ، تارةً بنفسه ، وتارةً بماله ، وتارةً برسالته ، مؤثراً جواداً حتى أنه لا يردُّ مَن قصده شاعراً كان أو غيره ، بل يبادرُ بقضاء حاجات مَن قصده ، وربما عذله بعضُ الناس في ذلك فكان ينشدهم :

لاتقبلن الشعر ثم تُضيعُـه	فتنامُ ، والشعراءُ غيرُ نيـام
واعلمْ بأنهم إذا لم يُنصَفـوا	حكموا لأنفسهم على الحُكـام
وجنايةُ الجاني عليهم تنقضي	وعقابُهم يبقَى علـى الأيـام

وكان الناسُ يتوسلون به عندَ الخلفاء والأمراء وغيرهم في حاجاتهم لمنزلته الكريمة عندهم ، وكان أكثرُ تسبباته في الحراثة والزراعة والغراسة ، وكسبَ أملاكاً كثيرة ، وكانَ كثيرَ الإنفاقِ لنفسه وحاشيته ، ولا سيما في الولائم والمواسم إلى أن ارتكبتْه ديونٌ كثيرة ، وغفلَ عن ضبط ماله ، والتفقدِ لأحواله ، واستغسلَ بالمسامحة لوكلائه ، فتعينَ عليه مالٌ جسيمٌ مبلغُه واحدٌ وثلاثون ألفَ دينار وثلاثمئة دينار كلُّها من الذهب العين ، من جملتها ودائعُ كانت بيده ، ولم يبلغ ما أُلفِيَ بيده وحوزه من الأموال والرباع وغيرِ ذلك عند طلب الناس أموالَهم اليه وقيامهم عليه حاشا عشرةَ آلاف دينار وخمسَمئة دينار من الفضة اقتسمَه الغرماءُ حسبَ ديونهم ، ولم يسعْ عدلُ

مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله عند تحقُّقِه لذلك إلا صرفَه عن الخطبة والإمامة ، ورأى أن ذلك مما يقدحُ فيه ، وأنفذَ أمره بصرفه ، فرفعَ له هذه الأبياتَ من نظمِه رحمه الله :

أمولايَ يا خيرَ الملوكِ ومَن له ... مزايا على كلِّ الملوك الأكابرِ
أما آن أن تحنو وترحمَ شاختي ... وحبُّك ثاوٍ في الحشا والضمائرِ
وحبُّ أبي قبلي إليك مجـددٌ ... لدى كل بادٍ في الأنام وحاضرِ
فكيف يضيعُ الحبُّ يا نورَ ناظري ... وأنتَ إمامٌ ذو العلا والمآثـرِ
وكيف يكون المزدغي حبيبكـم ... مضاماً مهاناً في القرى والحواضرِ
وقد قال أهلُ العلم طراً بفاسِنا ... بأن الذي قد كانَ ليس بضائرِ
وغايةُ ما قد عددوها صغائـرا ... ولا قدحَ فيمنْ قد أتى بالصغائرِ
أأبعدُ عنكم دونَ فعلٍ كبيـرة ... وأمنعُ قهراً من صعود المنابرِ
ولو كنتُ ياموْلايَ أعلمُ أن مَن ... رقى منبراً مثلي يكونُ مناظري
لما طمحتْ نفسي لشيءٍ من العلا ... وألزمتُها دونَ الصفوف الأواخرِ

ولما وقف عليها صمَّمَ على صرفه ، وكتبَ الأمرَ بذلك لمدينة فاس من منصورة تلمسان (126) في الثالث عشر لشعبان سنة ست وأربعين وسبعمئة ، ووقفَ مولانا أميرُ المسلمين أبو الحسن رحمه الله على قصيدة أيضاً من نظمه كان أراد رفعها لمقامه العليِّ حين غلبه الدينُ ليستجديَه ويعينَه في دينه فخجِلَ من ذلك وأجرى له جرايةً من مجبى فاس مبلغُها مئة دينار وخمسون ديناراً فضة في كل شهر إلى أن توفيَ في عقب شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمئة .

---

126) المنصورة : وتعرف أيضاً بمنصورة فقط ، مدينةٌ ملكيةٌ بظاهر تلمسان شرع في بنائها السلطان يوسف بن عبد الحق المريني سنة 702 أثناء حصاره الطويل لتلمسان الذي استمر مئة شهر، كانت من أبهى الحواضر الملكية وأجملها في العصر المريني ، لما كانت تشتمل عليه من القصور والجنات والمساجد والمدارس والحمامات والدور الأنيقة والمغاني الرفيعة وبها كان يستقرُّ ملوكُ بني مرين ورجال مخزنهم عند مجيئهم الى تلمسان مسالمين أو محاربين ، وقد هدمَ هذه المدينة الملكية ملوكُ تلمسان العبد الواديون الزيانيون تشفياً وانتقاما ، ففقدت الحضارةُ المغربيةُ بخرابها درةً من عقدها وجوهرة من تاجها، فإن منصورة تلمسان حسبما يدلُّ عليه وصفُ المؤرخين لها كانت من أفخم بناءات ملوك بني مرين وأحسن منجزاتهم العمرانية . وهي اليومَ قريةٌ متواضعة تحيط بها البساتين الغنية والمزارع الخصبة تواجهُ صومعةَ مسجدها وأبراجَ أسوارها أنظارَ الذاهبين من تلمسان الى المغرب أو الواردين منه عليها بطريق السيارات أو القطار .

فمن القصيد :

ما لي سوى المقتدَى بالكتب والرسل	بعد الإله أمير المسلمين علي
ما لي سواه لما أرجوه من منن	ما لي سواه لنيل السؤل والأمل
نجل الخليفة عثمان الذي وضحت	منه المعالي وضوحاً غير محتمل
أعني أبا حسن قطبَ الملوك ومَن	أحيى الخلافة في علم وفي عمل
غوث الملوك اذا خطب ألمّ بهم	غيثُ العفاة ، أمانُ الخائف الوجل
بحرُ السماحة فياضٌ لـواردِه	عذبٌ ويرويك في نهل وفي عَلل
يُنسيك يومَ هياج الحرب عنترَهم	عند الطعان وما عمرو بمحتفل
ماضي العزيمة فردٌ في شجاعته	يوفي على كل ذي وصف وذي مثل

ونقلُ مثل هذا إنما هو ليكثرَ الانسانُ من الشكر على ما في القناعة وحفظ المال من الخير والمصلحة ، وليتذكرَ العاقل وينتبهَ الغافل .

فخطب من بعده الشيخُ الصالحُ الورعُ الخاشعُ التالي لكتاب الله تعالى عبد الله بن محمد الجنياري المحمديّ ، وكان رحمه الله كثير الصوم وصدقة السر ، وقدمه لذلك مولانا أميرُ المسلمين أبو الحسن رحمه الله الى أن تُوفِّي في يوم الخميس سادس وعشرين لشهر جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمئة . فخطب بعده الشيخُ الفقيهُ الصالحُ العالمُ الخاشعُ الورعُ الزاهدُ يوسف بن عمر الأنفاسي (127) بتقديم مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله بعد الاستخارة في ذلك والنظر الأصلح للمسلمين ؛ وقبِلَ التقديمَ بعد أن أبدى لنفسه أعذاراً لم يسمحْ له فيها للمصلحة التي غلبتْ على أعذاره ، وفرحَ الناسُ بتقديمه له ، وشكروه لاهتباله بالأمور الدينية ، وبعث له في أول خطبة خطبها كسوةً سنيةً تشتملُ على برنس وبدن كلاهما أبيض من صوف ، واحرام للتردية، ومنديلٌ للتعميم ، ودراعتين من ثوب الرصان وقبطية

---

127) يوسف بن عمر الأنفاسي السلامي الولي الصالح ، الفقيه الخطيب ، له تقييدٌ على رسالة ابن أبي زيد القيرواني من أفيد التقاييد ، توفي يوم الأحد 13 شعبان عام 761 وقد نيف على المئة سنة ، ودفن خارج باب الجيسة بين الحارتين .

شواشية العمل ، قال الرسول الذي حملها له إن قيمتَها أزيدُ من مئة دينار من الذهب ، ولما وصله خجِلَ من ذلك وقال : ان هذه الكسوةَ لا تصلحُ لمثلي ، وفيما عليَّ من اللباس كفاية ، وفهم منه طلبُ المعافاة في قَبولها ، فقال له الرسولُ أنتَ من أهل العلمِ ، وعندك وجوهٌ لأخذها ، وانما قصدَ مرسلُها ومهديها التنويهَ لأهل العلمِ مثلك ، وليمتازَ أهلُ الخطط من غيرهم، وليعلمَ الناسُ بتقديمه لك ، ولما في الهدية من التودد ، فقبِلَها وشكرَ عليها ودعا له بصالح الأحوال وبلوغ الآمال ، ثم لبِس بعضَها في خطبته الأولى، ثم وهبها لمن يستحقها، وهو السيدُ الشريف محمد بن عمران المتقدم ذكره واقتصرَ على عادته في لباسه ، ولم يزلْ عنده محمولاً على البر والاكرام، والرعْي المستدام ، مقضيّ الحاجات على الدوام . واختطب نائباً عنه لأعذار أبداها الشيخُ الفقيهُ القاضي الراويةُ المحدث ، محمد بن الحاج علي بن عبد الرزاق الجزولي، وما زال أبو الحجاج يوسف يعتذر عن القيام بها الى أن استبدَّ بالقيام بذلك الفقيهُ محمد بن علي المذكور ، وأقام خطيباً الى أن اعتلَّ وظهرَ عجزه عن الخطبة ، فخطب بعد عجزه الفقيه العدل الصالح عبدُ الله ابنُ الخطيب الصالح الورع الخير عبدِ الواحد ابن الخطيب الأشهر محمد بن أبي الصبر بتعيين مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله لذلك في يوم عجزِ من ذكر ، وذلك يومَ الجمعة الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وسبعمئة ، وتوفّي الفقيهُ محمد بن علي ابن عبد الرزاق المذكور في يوم الأحد الرابع لذي القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمئة وبقِيَ الشيخُ الصالح يوسف إماماً إلى أن مرض وعجز عن القيام بالامامة ، فتقدم ولده الشاب الصالح الولي سليمان نائباً عنه في ذلك بعد ابايه منه ، ثمَّ أجابَ في يوم الأربعاء الثاني عشر لرمضان سنة ستين وسبعمئة ، واستمرَّ على الاستنابةِ إلى أن توفّي والده المذكور في يوم الأحد الثالث عشر لشعبان سنة احدى وستين وسبعمئة ، واستقلَّ ولده سليمانُ بالامامة وظهرَ منه خيرٌ واستقامة ، لم تأخر من تلقاء نفسه نفع الله به لأمرٍ ظهرَ له في ذلك ، واجتمع

واجتمع للخطيب المبارك الصالح عبد الله بن أبي الصبر المذكور الخطبة والامامة ، وذلك في أواخر عام سنة وستين وستمئة (128) .

ومن الزيادات في الجامع المذكور البابُ الأكبرُ الغربي الذي بسماط الموثقين (129) بُنِيَ من مال الأحباس في أيام الفقيه القاضي محمد بن عيسى السبتي سنة خمس وخمسمئة ، كذا قاله صاحب (**المقباس**) ، ثم صنع بخارجه قبة الجبص المقربسة التي عليه الآن الغريبة الصناعة سنة سبع عشرة وستمئة على يد الخطيب عبد الله بن موسى المعلم قاله صاحب (**الأنيس**) ، والبابُ الأكبرُ أيضاً المعروفُ الآن بباب الشماعين بُنِيَ من مال الأحباس في أيام القاضي محمد بن داود سنة ثماني عشرة وخمسمئة . كذا كتب في قبة الجبص التي بداخله ، وصنع مرتفعاً واسعاً على صفة الباب القريب منه المذكور ، وركب عليه مصراعان عظيمان قد حسُنت قاعدتاه على ما هو الآن . وحينَ حُفر أساسُ هذا الباب وجد عن يسار الداخل فيه حيث هيَ الدكانة الآن بناء مقبو اتهم أنه كنز ؛ فهدم بعض الأقباء ، فوجدَ تحتَه صهريج طوله ثمانية أشبار وعرضه كذلك ، وفيه ماءُ معين ، وبالصهريج سلحفاة قد ملأته ، فاختلفوا في إخراجها ، ثم رأوا أن يستشارَ

---

128) هذا آخر تاريخ يرد في هذا الكتاب ، وبه تنتهي قائمةُ خطباء جامع القرويين الذين أوردهم المؤلف ، ونرى من المفيد أن نصل هذه القائمة بقائمة الخطباء الذين تداولوا الخطابة فوق منبر جامع القرويين إلى بداية القرن الحادي عشر الهجري :

استمر محمد بن أبى الصبر أيوب خطيباً الى أن توفي ، فخطب بعده الوليُ الصالح سيدي محمد ابن عباد النفزي الحميري الى أن توفيَ سنة 792 فخطب بعده محمد بن ابراهيم المشنزائي الى أن توفيَ سنة 846 فخطب بعده عبد الله العبدوسي إلى أن توفيَ سنة 848 فخطب بعده احمد بن سعيد المكناسي الى أن توفيَ سنة 870 فخطبَ بعده عبد العزيز الورياغلي إلى أن توفيَ سنةَ 880 فخطبَ بعده عبدَ العزيز البوفرحي إلى أن توفي سنةَ 890 فخطبَ بعده يوسف الفندلاوي إلى أن توفيَ سنةَ 914 فخطبَ بعده الفقيهُ الشهير محمد ابن غازي العثماني المكناسي إلى ان توفيَ سنة 919 فخطب بعده احمد الدقون الصنهاجي الى أن توفيَ سنة 921 فخطب بعده محمد غازي إبن الفقيه ابن غازي المتقدم الى أن توفيَ سنة 943 فخطب بعده علي بن موسى بن هارون المطغري الى أن توفيَ سَنة 951 فخطب بعده عبد الرحمان بن ابراهيم المشنزائي الدكالي الى أن توفيَ سنةَ 962 فخطب بعده ابنه أبو شامة الى أن توفيَ سنة 964 فخطب بعده محمد بن عبد الرحمان ابن جلال التلمساني الى أن توفيَ سنةَ 981 فخطب بعده ابنه محمد الكبير نحو الستة أشهر ، ثم نقل الى جامع الأندلس وأسندت الخطبةُ بجامع القرويين الى الفقيه يحيى بن محمد السراج النفزي الحميري .

129) يعرف الباب اليوم بباب العدول وهم الموثقون ، وقد استمرّ العدولُ بذلك السماط إلى أن نقلوا منه منذ نحو الخمسة عشر عاماً .

في ذلك فقهاء المدينة فأشاروا بتركها في موضعها وأن يعادَ الأقباء كما كان . وهذه الفتوى لا تصحُ والله أعلم . لأن السلحفاةَ إن كان فيها الحياة فلا يجوزُ البناءُ عليها ، وان كانتْ ميتةً فلا يجوزُ أيضاً بناءُ المسجد على الميتة . اللهم الا أن يكون ذلك الماء غِذاء لها. وليس في البناءِ عليها تعذيبٌ لها فلا يمنعُ البناءُ عليها ، وأيضاً فقد يكونُ مَن تقدم ربما جرب غيرَ مرة وقوعَ الضرر بمَن يريد إخراجَها من موضعها ، اما لكونها جناً عامراً أو غيرَ ذلك والله أعلم ! .

ولما تمّ بناءُ هذا الباب عمل بأعلاه قبتان احداهما من جبص بداخله والثانية من خشب الأرز بخارجه ، ثم قدر ان اضطرمتْ نار بجهة باب السلسلة وأحرقتْ ما مرت به من الأسواق إلي أن وصلت قبةَ الخشب المذكورة فاحترقتْ وذلك في جمادى الآخرة سنةَ احدى وسبعين وخمسمئة ثم جدد خارج الباب والقبة التي احرقتْ ، وصنعتْ القبة من الجبص على نحو ما هيَ الآن على يد أحد عمال الموحدين في شعبان سنةَ ستمئة ، كذا كُتب فيها ، وكان الإنفاقُ في ذلك من بيت المال .

وفي أيام القاضي محمد بن داود زيدَ في الصحن بناء بلاطين من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك ، وفرشَ الصحن في أيامه حسبما ذكره صاحب (**المقباس**) ، ومن (**الأنيس**) أن الصحنَ كانت فيه معدات (130) من صخر يحتبس فيها الماء ، فتطوع العريفُ المتقن ، محمد بن صخر بفرشه من ماله ، وكان له أربعُ من الدور موروثة عن أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاجُ اليه من آجر وجير وغير ذلك ، وتولى فرشه بيده ، ولم يأخذ في ذلك كله من أحد شيئاً ، وقال : انما ابتغيتُ بذلك وجهَ الله تعالى ، وهو الفرش الذي به الآن ، وفي طوله من شرق الى غرب مئتا صف وثلاثة وأربعون صفاً في كل صف مئتا آجرة وثمان عشرةَ آجرة ، فيصح في تكسيره اثنان وخمسون ألف آجرة وتسعمئة وأربع وسبعون آجرة ، وفي

130) جمع معدة ، والأصل معدى : صهريج صغير يجري اليه الماءُ من ساقية كبيرة ، ثم يجري منه في (مشارب) الى الدور والحمامات والسقايات بأقدار معلومة .

طوله أيضاً من الأشبار مئة واثنان وثمانون شبراً ، وفي عرضه خمسة وسبعون شبراً.

ومما زاده القاضي عبد الله بن داود المذكور أن جعلَ له مظالٌ من شقق الكتان تنتشرُ عليه كل يوم جمعة في زمن القيظ تحجبُ بها الشمسُ عن المصلين العاجزين عن الرواح البعداء المنازل الذين لا يجدون محيصاً عنه لتضايق الجامع ، وذلك بأن جعل في أطنابها سلبات (131) تجرى في بكر موثقة بالرفوف الدائرة على جوانب الصحن ترتفعُ بها المظال مدة الحاجة اليها ، ثم تحط وتزال وتخزن الى وقت الحاجة اليها أيضاً ، وجعل في مواضعَ منها فرجاً يتنفسُ منها الهواء ، وبقيت كذلك أعواماً الى أن تمزقت وأهملَ النظرُ فيها وبقيت بكرها ظاهرة إلى الآن ، كذا نقله صاحب (الأنيس) .

ومما أُنشدَ في معنى ذلك يشيرُ به إلى القاضي المذكور :

تبهجت الدنيا بعدلك في الورى	وفسحتَ لما ضاق بالخلق - جامعا
شكا صحنُه شمسَ الظهيرة صاحياً	فأظللتَه ظلا عن الوهج دافعا

ولما كثرت العمارات بالمدينة في أيام أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وضاقَ الجامعُ بكثرة المصلين الى أن كانوا يصلون في الشوارع والأسواق ، اجتمعَ فقهاءُ المدينة وأشياخها ورفعوا ذلك للقاضي عبد الحق بن عبد الله ابن معيشة الغرناطي سنةَ تسع وعشرين وخمسمئة ، وذكروا له كيفَ تتضحُ الزيادة فيه ، وبينوا له وجوهاً في الاعانة على بنائه ، وأعلموه أن كثيراً من أوقاف المساجد عند كثير من أهل فاس قد أدخلوها في منافعهم وحسبوها من أموالهم ، وأنها تقومُ بالنفقة في الزيادة ، فشاور في ذلك الأمير علي بن يوسف ، وأعلمه أن ذلك من رفع علم الدين والتوسعة للمصلين ، لاسيما في الجمعة التي هيَ من أعياد المسلمين ، فأذنَ له وتوجهَ الطلبُ على النظار والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم ، فيذكر أن الذي أبرزتْه

131) حبال مدرجة ، وكان اللصوصُ يستعملونها للنزول من السطوح لوسط الدور قصدَ السرقة في الليل ، ولا تزالُ الكلمة مستعملة بهذا المعنى الى اليوم بفاس .

المحاسبةُ في ذلك ثمانون ألفَ دينار فضة ، ثم شرعَ في شراء الأملاك التي كانت بقبلي الجامع ، فاشتراها بأحسن شراء ، وقيل أن أكثرها كان لليهود لعنهم الله ، وحينَ كمل له شراءهُ ما أراد أخذَ في هدمه وبيع ما لا يحتاج من نقضه ، فاجتمع في ثمن ذلك أزيدُ من الثمن المشتراة به ، ثم أخذ في البناء في هذه الزيادة ، فكملت به عشر بلاطات من صحنه الى قبلته ، وأخذ في عملِ القبة التي بأعلا المحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها ، فعملَ ذلك بالجبص المقربس الفاخر الصنعة ، ونقشَ على المحراب ودائرِ القبلة التي عليه ، ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة ، وركب في الشمسيات التي بجوانب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه ، وتم ذلك على أحسن ما أريد ، ثم أخذ في تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن ، وأمرَ بعمل المنبر الذي به الآن على نحو ما ذكر قبل من أجل الذي كان به قد درس وقد ذكرناه . ثم بدأ العمل في بناء مقدم القبلة حيث يدخل الى مصلى الجنائز ، فعزلَ القاضي ولم يتمَّ ما أراده ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة . وتقدمَ غيرُه ولم يشرع في شيء من ذلك ، وبقيَ على حاله الى أن وليَ قضاءَ المدينة الشيخ الفقيه عبد الملك ابن بيضاء القيسي في سنة سبع وثلاثين وخمسمئة ، فتمَّ ذلك في أيامه على نحو ما بدأه ابنُ معيشة . واقتصر على ما غشيَ في أيامه من الأبواب ، وكان الفراغُ من هذه الزيادات في شعبان سنةَ ثمان وثلاثين وخمسمئة . ويذكرُ أن النقشَ والتذهيبَ الذي كان بأعلا المحراب ودائرِ القبة التي عليه غطيَ بالكاغدِ وعمل عليه الجبصُ حينَ عزم الخليفةُ عبد المومن بن علي على الدخول لفاس والصلاة في الجامع المذكور ، فان ذلك كان مشغلا للمصلين وبقيَ كذلك حتى الآن .

ويذكرُ أيضاً ان الترابَ والكذانَ الذي بنيَ به هذه الزيادة كان يخرج من كهف عميق تحت بعض هذه البلاطات الثلاثة ، وللكهف الآن بابٌ مطبق بالقطعة التي بين المحراب وباب المدرج المحدث هناك ، وأن الماءَ الذي صرف في ذلك كان يستقى من البئر التي بصحنه ، كل ذلك تحرياً من الشبهات ، كذا نقلَ صاحبُ الأنيس .

وأما الثريا الكبرى فانه كانت بموضعها قبل عمل هذه - ثريا مثلها في الجرم، فتثرث وتكسرت وصُنعتْ هذه في أيام الفقيه الخطيب عبد الله بن محمد بن المعلم رحمه الله ، وكان الانفاقُ فيها مبلغ مئة دينار وسبعة عشر ديناراً وخمس دينار من الدنانير الفضية ، كل ذلك من مال أحباس الجامع ، وفيها من الصنعة ما يعجزُ عنه الآن ، وفي زنتها سبعةَ عَشَرَ قنطاراً وربعا قنطار ، وربعا ربع قنطار ، وفي دورها اثنان وثلاثون شبراً ، وعددُ مراكز قناديلها خمسمئة وعشرون مركزاً ، والذي يملأُ قواريرَ سرجها من الزيت خمسُ قُلَل ، وكانت تارة تسرجُ كلها في ليالي رمضان ، وتارة لا تسرج ، إلى أن وليَ الشيخُ الفقيه محمد بن أبي الصبْر قضاءَ المدينة فرأى أنه إن أسرجتْ كلُّ ليلة من رمضان قد يكونُ ذلك سرفاً في مال الجامع ، وان لم تسرجْ قد يكونُ ذلك تعطيلاً لما أريد بها . فاقتضى نظره ان استشار في ذلك أميرَ المسلمين مولانا أبا يعقوب وأنهى اليه أمرها ، فأمره أن يأخذَ في ذلك بالأوسط من الأمور ، وأن تسرجَ كلها في كل ليلة من ليالي السابع والعشرين من رمضان ، ويسرجَ بعضُها في سائر ليالي العام ، فدامَ العملُ على ذلك الى الآن .

تحكي الثريا الثريا في تألُّقِها ... وقد لواها نسيمٌ وهيَ تتقد
كأنها لذوي الايمان أفئدةٌ ... من التخشع جوف الليل ترتعد

ومما قيل في السرج :

انظرْ الى سرج في الليل مشرقة ... من الزجاج حواها وهيَ تلتهبُ
كأنها ألسنُ الحياتِ بارزة ... عند الهجير فما تنفكُّ تضطرب

وقال المزياتي في الثريا :

انظرْ إلى ثرية نورها ... يصدع باللألاء سجفَ الغَسَق

وقال ابنُ عبدون :

كأنها في شكلها ربوة ... انتظمَ النورُ بها فاتَّسَق

وقال محمدُ بن خلف :

باهى بها الاسلام ما أشرقت　　　كاساتُها عند مغيب الشَّفَق

وقال ابنُ المرحل (132) :

أعيذُها من سوء ما يتقى　　　وفجأة العين بربِّ الفَلَق

وأما المستودَعُ الذي به الآن فإنه عُمل في أيام الفقيه الصالح أبى محمد يسكر ليوضعَ فيه مالُ الأحباس وأوقافُه ، وكان الناظر في بنيانه الفقيه أبو القاسم بن حمد وبناه بأن حفر قاعتَه الى أن وصل الأرضَ الصحيحةَ ثم بلط ذلك بالرمل والجير ، وجعلَ أسفلَه طاقة من أحجار كبار مبسوطة وطاقة من الرمل والجير ، وحصنَ داخلَه وسقفه بخشب الأرز ، وعَملَ له خمسة منافس بصفائح من حديد مقلوبة ، وبابان أحدهما محدد ، كل ذلك على الوجه المحكم والعمل الوثيق ، وجعل على كل باب منهما ثلاثةَ مفاتيح ، وجعل في داخله صناديقَ كباراً عليها أقفال وثيقة ، ثم وضع فيه أوقافَ الجامع وأماناتِ الناس ، فاحتيل عليه في أيام الفقيه القاضي محمد بن عمران وسرق منه مالٌ كثير ، واجتهد في البحث على ذلك فعمِيَ خبرُه .

وأما البيلةُ (133) والخسةُ ودارُ الوضوء واحداث البناء في توسيع باب الحفاة وتجديده وفتح البَاب المُقابل لفندق ابن حيون من الجهة الشرقية من الجامع المذكور فان ذلك كان في أيام الفقيه الصالح أبي محمد يسكر . يُحكَى أنه قدم إليه رجل من جبال بني يازغة يعرف

132)مالك بن عبد الرحمان ابن المرحل المخزومي المصمودي السبتي ، أصل سلفه من الأندلس وبها ولد بمالقة سنةَ 604 وانتقل صغيراً الى سبتة فسكنها طويلا ، ثم انتقل الى فاس ثم عاد الى سبتة مرة أخرى ، ثم عاد الى فاس وبها توفيّ في 17 رجب عام 699 ودفن خارج باب الجيسة عن يمين الخارج من المدينة في الروضة الثانية المركنة . كان شاعراً مطبوعاً سريعَ البديهة قويّ العارضة ، رشيقَ الألفاظ ، ذاكراً للآداب واللغة ، وكان شاعرَ المغرب بلا منازع في وقته .

133). صهريج من رخام مستطيل ملاصق للأرض والكلمة اسبانية .

بموسى بن عبد الله بن سدان (134) ، وكان له مال كثير واستوطن فاساً، ولزم صحبةَ الشيخ أبي محمد يسكر ، وذكر له أن بيده مالا طيباً ورثه من أبيه ، وأن أباه اكتسبه من حراثته بيده في أرضه ومن ماشية توالدت عنده ، ويريدُ أن يصرفَه فيما يحتاجُ اليه جامعُ القرويين ، فتوقفَ الشيخ أبو محمد الى أن ينظرَ في ذلك ، وصار الرجلُ يلحُّ عليه في أن يعملَ دارَ وضوء بقرب الجامع المذكور لتكون عوناً للمصلين ، فلما رأى عزمَه وتوسمَ فيه الخيرَ حملَه الى الجامع وأوقفه بين المنبر والمحراب ، واستحلفه أن ذلك المال طيب ، فحلف له ، ثم قال له : اشرع الآن فيما أردت والله ينفعك بقصدك ، فعمد الى فندق كان في موضع دار الوضوء الآن واشتراه وشرع في نقضه ، ثم بحثَ عن موضع يجلب منه الماء لذلك ، فأعلم بمواضع شتى استشار فيها أهلَ المعرفة والنظر ، فلم يروا له أصلحَ من عين بدويرة بجرنيز (135) وتعرفُ العينُ بعين جرمال ، ومنها الى الجامع خمسمئة ذراع ، فاشترى ذلك بأضعاف القيمة حرصاً على مراده ، ثم رغب من الشيخ أبي محمد أن يعلمَ بذلك الناصرَ الموحدي ويستأذنه أن يجلبَ هذا الماء حيث يباح له من الشوارع ، فأجابه إلى ذلك وأعلم به الناصر فأسعفَه بمطلبه ، ثم شرع في بناء دار الوضوء ، وجعل لها خمسة عشر بيتاً ، ولكل بيت مصراعان ، فوق سقف كل بيت طاق لدخول الضوء وأخرى فوق بابه ، وعلقَ فوقَ كل طاق من طيقان أبوابها صبحية من الزجاج تسرجُ في أول الليل وآخره ، وفي كل بيت أنبوبٌ من نحاس ينصبُ منه الماءُ في نقير محفور في حجر طوله شبران وعرضه شبر وعمقُه نصفُ شبر ، وفي سمكها قبةُ جبص مقربسة العمل مرقشة بأنواع من الأصبغة ، وعلق في وسطها ثريا ولها قواريرُ من زجاج تسرجُ في أول الليل وآخره أيضا ، وأدارَ من الجهة القبلية والشرقية والجوفية أحدَ عشرَ طاقا لدخول الضوء لجميعها ، وجعل بوسطها بيلةً من الحجر الأحمر طولها عشرون شبراً وعرضُها خمسةُ أشبار ، وفي وسطها ذراع مجوف ، وركبت عليه شبه خرشفة فيها عشرون ثقباً كلها من نحاس مموه بالذهب ينصبُّ منها الماءُ للبيلة ، وأدارَ بها مقعدا

134) في نسخة دار الكتب المصرية : سدات .

135) ما زال هذا الحيُّ معروفاً باسمه الى الآن بعدوة القرويين .

وجعلَ على ذلك مما يقابل الواقف شباكاً من الرخام من مئة وأربعة وعشرين خاتما مسدسة الاحكاء ، وكتب تحته في حجر منقوش بخط بارع : باسم الله الرحمان الرحيم . اللهمّ صلّ على محمد وعلى آله وسلم تسليماً ، وان من الحجارة لما يتفجرُ منه الأنهار ، وان منها لما يشقّقُ فيخرجُ منه الماء ، وان منها لما يهبطُ من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون ، كمل في شهر جمادى الآخرة سنةَ تسع وتسعين وخمسمئة . وجعل تحت ذلك في ألواح الرخام خمسةَ أنابيب ينصبُّ منها الماءُ في البيلة المذكورة ، ثم ينحدرُ منها بعد امتلائها في عشرين ثقباً معدة لذلك في الجهة الشرقية منها ، وينصرفُ منها للخسة القريبة منها من جهة غربيها قد عملت من طاقتَيْن في دورها ثلاثةَ عَشَرَ شبراً قامتْ على ساق مقسوم على نصفين ، كل ذلك من النحاس الأصفر ، فيصعدُ الماء المنحدر من البيلة في النصف الواحد من الساق ، ثم يفور في وسطها من ثمانية أثقاب بجوانب خرشفة من نحاس مموهةٍ بالذهب ، ثم يفورُ منها الماءُ بعد امتلائها في أثقاب معدة لذلك في جوانبها ويجتمعُ في النصف الثاني من الساق ، فلا تزالُ البيلة والخسَّةُ مملوءتين قد سبل ما ينثال منهما لمآربِ المصلين والعاكفين والواردين والصادرين في وضوئهم وشربهم متى احتاجوا اليه في ليلهم ونهارهم ، وهذه فضلة تتكرر على الدوام لهذا الجامع ولمن سعَى في ذلك وأعان عليه من خلفاء الاسلام ، ثم يمرُّ ما ينحدرُ من ماء الخسة في قادوس الى الميضأة التي بعين قرقف بالجهة القبلية من الجامع المذكور .

وأما العنزةُ التي بها الآن فانها صنعتْ حينَ كان الفقيه محمد بن أبيْ الصَّبْر ناظراً في أحباس جامع القرويين ، ومن فوائدها أنفق فيها ، وذلك سنةَ ست وثمانين وستمئة ، وفيها من غرابة الصنعة ونفاسة الصبغة وإتقانِ الألصاق ودقة الخرط والنقش وجلالة الاحكاء ما يقضي بالعجب ويصرحُ بالاعجاز . ومما أصلحَ فيه الحائط الشرقي مع سقف البلاطين المتصلين به ، وذلك في ايالة مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف رحمه الله تعالى سنةَ اثنتَيْن وثمانين وستمئة ، وأنفقَ فيه من مال

الجزية والأعشار ، وأصلحَ فيه أيضاً الحائط الجوفي من حد الساباط الفاصل بينه وبين الدار الموقفة لسكنى أيمته إلى حدِّ باب الصفر الذي هناك ، وذلك في ايالة مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب رحمه الله ، وأنفقَ فيه خلخالَ ذهب صار له من مال غنائم الروم ، وكان اصلاحه على يد قاضيه بالمدينة الفقيه أبى غالب بن القاضي أبى عبد الرحمان المغيلي ، وذلك سنةَ ست وتسعين وستمئة .

ومما أحدث فيه الباب المدرج الذي بقبليه ، وذلك أن الواليَ إذ ذاك بالمدينة علي بن محمد بن عبد الكريم الحدودي تأملَ البابَ المدرجَ الذي بُنِيَ في أيام الناصر الموحد بجوفي جامع عدوة الأندلسيين من المدينة ، ورأى أن يفخم أمرَ جامع القرويين ويصنعَ له هذا الباب ليكون مماثلا للباب المذكور ، فبناه على هيأته الآن ، وصنعَ أسفلَه نقيراً من خشب مصفح بالرصاص ، وجلبَ له الماء من عيون ابن الصادي المعروفة بعيون الكزارين ليدخلَ عليه الحفاةُ وغيرهم ، وعملَ عليه شباكاً من خشب الأرز بباب يدخل اليه منه مَن أراد الصعودَ الى أدراجه ، وصنعَ بأعلا الأدراج باباً عظيماً يدخل منه لقبلة الجامع ، وصنع عن يمين الخارج من أسفل الأدراج سقايةً ونمقها بالجبص والزليج والحجر المنجور وأنواع الأصبغة ، كلُّ ذلك بصناعات محكمة ظريفة العمل ، وجلبَ اليها الماءَ من الموضع المذكور ، ويذكرُ أنه أنفق في ذلك من مستغلاته في سنة اثنتين وتسعين وستمئة . وأراد ان يعلمَ بذلك مولانا أمير المسلمين أبا يعقوب رحمه الله وليجعلَ ذلك خدمةً له ، ثم ان مَن حسده بادرَ بالسعاية اليه فيه ، ورفعَ لأمير المسلمين أنه أحدثَ بالجامع ما لا يحتاجُ اليه بغير اذن ، فأمرَ أميرُ المسلمين بغلقه الى أن ينظرَ في أمره ، فغفلَ عن ذلك ، ولم يزل الباب مغلقاً الى الآن .

ومما أحدثَ فيه الأميرُ المرحوم عُمَرُ بنُ أمير المسلمين أبى سعيد رحمه الله أن جعلَ في الجهة الغربية من الجامع تسعةً من الطيقان لزيادة الضوء في تلك الجهة ، وأمرَ أن يجعلَ على المحراب مقصورة وشرع الصناعُ في عملها وأنشئت من ثلاثة أجناب من خشب الأرز بصناعة

التقاشير ، ارتفاع كل جنب منها تسعةُ أشبار ، وطولُ الأوسط منها ثلاثون شبراً وهو الذي صنع فيه الباب ، وطول كل واحد من الآخرين خمسة وعشرون شبراً ، ثم ان الناسَ ظهرَ لهم أن في ذلك مضرةً بانقطاع الصفوف وحيلولتهم عن الامام وغير ذلك من الوجوه ، ورفعوا الأمرَ في ذلك لفقهائهم ، فلقوه وبينوا له ما ظهرَ للناس من الضرر ، وقالوا له مع ذلك أموراً مصلحية فرجعَ عن عمله في سنة اثنتي عَشْرَةَ وسبعمئة ، وكان الانفاقُ فيه من مال الأحباس على يد الناظر فيها محمد ابن حنيون ، وكان مولانا أبو الحسن رحمه الله أرادَ أن يجعلَ بهذه الأجناب المذكورة مقصورةً بجامع القصبة من فاس لصغر التي به وقِدَمِها ، فأنسِيَ ذلك والله أعلم .

وأما الناقوسُ الكبير المعلقُ بالبلاط الأوسط المقابلُ لباب الكتبيين فهو الذي أُلْفِيَ بجبل الفتح من برّ الأندلس حينَ استفتحه المسلمون على يد الأمير الأسعد الشهيد عبد الواحد ابن أمير المسلمين أبي الحسن رحمهما الله تعالى ، وزنتُه فيما ذكر عن الذين جلبوه عشرةُ قناطير ، ولما وصل لفاس أمرَ أميرُ المسلمين أبو الحسن أن يعلقَ هناك بعد أن يعملَ في جوانبه أجناحٌ قائمة منفرجة ليبقى جرمه ظاهراً ، ويعملَ عليها مراكزُ لقوارير الزجاج التي تسرجُ فيه ، وبأسفله أوصال مبلغها اثنا عشر ، وتحت كل وصل منها غلون مكفف ، وفي وسط ذلك طبقٌ شبه الخاتم ناتىء عن الأوصال ، وفي أسفل حرف الطبق بيادق مخروطة ونطاقٌ مقورٌ في وجه الأوصال ، كل ذلك من النحاس الأصفر المنقوش المخرم بالصناعة المحكمة . وكتب على النطاق : الحمد لله وحده . أمر بتعليق هذا الناقوس المبارك مولانا أميرُ المسلمين ، وناصرُ الدين ، أبو الحسن ، بنُ مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي سعيد ، بنِ مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيّدَ الله سلطانَهم ، وأسعد عصرهم وزمانَهم ، وهوَ الناقوسُ المُلْقى بجبل الفتح حرسه الله ، افتتحه بعون الله وتأييده مولانا أميرُ المسلمين أبو الحسن أيده الله ونصره على يد ولده الأمير الأسعد أبي مالك ، ومولانا أيده الله ونصره محاصرٌ مدينةَ

سجلماسة ، وكان افتتاحُ الجبل المذكور في يوم الأحدِ الخامس لشهر شوال المبارك من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمئة . والله يرشدُه . هكذا أملاه من موضعه وقَّادُ الجامع المذكور . وفي أثناء عمل الناقوس كما ذكر عمل له هناك قبة من الجبص متقنة العمل علقَ بها في منتصف شوال سنة سبع وثلاثين وسبعمئة ، وكان الانفاقُ في ذلك كله سبعون ديناراً من الذهب من مال الأحباس على يد الناظر فيها أحمد بن محمد ابن الأشقر الصنهاجي .

وأما خزانةُ الكتب التي يدخلُ اليها من أعلا المستودعُ الذي بالجامع فانه لما كان من شيم مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله حبُّ العلم وايثاره ، والتهمم به والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله ومتحمليه ، والتودد لقرائه ومنتحليه انتدبَ لأن صنع هذه الخزانة وأوسعَ طلبةَ العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان ، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشتى ضروبها وأجناسها ، ووقفها ابتغاءَ الزلفى ، ورجاءَ ثواب الله الأوفى ، وعين لها قيماً لضبطها ، ومناولة ما فيها ، وأجرى له على ذلك جراية ، وأفاده مكرمةً وعناية ، وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمئة .

وأما خزانةُ المصاحف التي جعلها مولانا المتوكلُ أبو عنان رحمه الله في قِبلةِ صدر هذا الجامع فإنه صنعها لما سهله على الناس من تلاوة القرآن في الوقت المتخير من الأزمان ، بأن أعدَّ فيها جملةً كثيرةً من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجميلة السنية ، وأباحَها لمَن أرادَ القراءةَ فيها بعد أن كتب على كل جزء منها بخط يده بتوقيفها مدى الأعوام والليالي والأيام ، وعيَّنَ لها مَن ينفردُ باخراجها من هذه الخزانة وابرازها ، وردها لصيانتها في موضعها واحرازها ، وذلك عند الفراغ من حاجات الناس اليها ، فلا يبدلُ ذلك ولا يغيرُ الى أن يرثَ الله الأرض ومَن عليها ، وأجرى له جراية ، وأوسعه كرامة ورعاية ، وتمَّ عملُها في شهر شوال سنة خمسين وسبعمئة .

وأما زاويةُ القراء ، البهيةُ الغراء ، التي أمرَ بها مولانا المستعين عن يسار قبلة هذا الجامع ، الناطقة بالخير الجامع ، المتشاكلة الأوضاع ،

الواقع على حسنها الأجماع ، التي لم يسبقه إليها أحدٌ من أئمة هذه الأصقاع ، فإنه أقامها على ساباط هنالك ، وجعل بقِبْلِيها وبجوفيها من صناعة الخرط والنقاشير والتزيين بالأصبغة مايبتهجُ به المارُّ والسالك ، ورتَّبَ فيها قراءً يقرءون القرآن ، ويختمونه في كل سبعة أيام بطول الأزمان ، وأجرى لهم جرايةً في كل شهر ينتفعون بها ، ويرتبون لذلك بسببها ، وتمَّ عملُها في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمئة . والله يجعلُ أجرَ ذلك في ميزانه ، ويضاعفُ به الحسناتِ في ديوانه .

ولهذا الجامع من الأبواب بين صغار وكبار ثمانية عشر باباً ، منها في الجانب الغربي باب مجلس القضاة للخصوم ، ومصلى الجنائز ، وباب الصفر الذي يدخل منه الخلفاء لانتظار شهودِ صلاة الجمعة ، وباب الصفر المعروف بباب النطاعين ، وباب الأولياء سُمِّيَ بذلك لكثرةِ مَن يدخله من العباد ، وباب الكتبيين ، وباب الشماعين الأكبر ، وسعتُه ستةَ عَشَرَ شبراً ، وباب الموثقين المقابل لتربيعة القراقين (136) ، وسعته وارتفاعه مثلُ الذي قبله ، وفي الجانب الجوفي باب الحفاة المقابل لدار الوضوء القديمة ، وباب الصفر المعروف بباب العُميان (137) سمِّيَ بذلك لكثرة ملازمتهم للقعود بمقربة منه يسألون الناس ، وباب بيت النساء الأصغر الذي بمؤخر الصحن ، وباب الخصة المقابل لباب مدرسة الرخام (138) ، وباب بيت النساء أيضاً الذي بأسفل الساباط الفاصل بين الجامع ودار أئمته ، وفي الجانب الشرقي الباب المقابل لطائفة من فندق ابن حيون ، ويعرفُ بباب ابن عمر ، سُمِّيَ باسم النجار الذي صنعه ، وهو المحدثُ في أيام أبي محمد يسكر ، والبابُ المقابل لدرب ابن حيون ، والبابُ المقابلُ لدار الخصة التي من أحباسه ، والبابُ المدرجُ القريبُ لدرب السبع لويات ، ويتصل بزاوية القراء التي أحدثها مولانا المستعين . وفي الجانب القِبْلي بابُ المدرج المحدث على يد علي الحدوذى المغلق الآن ، والبابُ الأصغر الذي يدخل

---

136) تعرف هذه التربيعة اليوم بالمركّطان .

137) استمر العُمْيُ - وخاصةً حفظةُ القرآن منهم - يجلسون بهذا الباب متسولين إلى عهد قريب .

138) هيَ المدرسةُ المعروفةُ اليومَ بالمدرسة المصباحية ، وقد شُرِعَ في ترميمها هذه السنة (1411 هـ - 1990 م) من مال أمير المومنين ، الملك الحسن الثاني بن الملك المرحوم محمد الخامس .

اليه من رابغة ابن الغرديس المعد هناك لمَن يدخلُ مستتراً إليه عن أعين الناس كدخول النساء للخصومات والأيمان وتقاضيها وغير ذلك ، وبين مجلس القضاة والصحن الصغير والزاوية التي هناك بمقدم القبلة بابان فاصلان لذلك ، وبين مقدم الصحن والزاوية المذكورين وقبلة الجامع خمسة أبواب ، الباب الذي يدخل منه الخلفاء لشهود صلاة الجمعة عن يسار المحراب ، وباب موضع المنبر ، وثلاثة مشرعة لها أغلاق وتنطوي عند فتحها من العمل الجيد والصناعة الغريبة ، والباب الأول من هذه الثلاثة القريب من المنبر منه يخرجُ الخطيب للجمعة ، ومن يتوجهُ للصلاة على الجنائز ، وبه مقامُ المعلم بالجنائز التي تكونُ هناك .

وعددُ سواريه الحاملة لسقوفه ثلاثمئة سارية ، منها عشرون من حجر ملون غريب الخلقة ، المشترك من جملتها اثنان وثلاثون وسائرها يدار عليها (139) ومن الاتفاق الغريب في احدى هذه السواري الثالثة منهن عن يمين الواقف مستقبلا تحت الثريا الكبرى يبصر مَن دار بها جميعَ أبواب الجامع التي بداخله ، وطوله من شرق الى غرب ثلاثمئة شبر وثمانون شبراً ، ومن مقدم القبلة الى الجوف ثلاثمئة شبر بعد تأسيس مساحة المقدم المذكور واضافته له ، وعدد بلاطاته واحد وعشرون من شرق الى غرب ، وسبعة عشر من مقدم الجامع الى جوفه على أن يكونَ قدرُ مقدمه مساحة بلاط واحد ، ويندرج فيه الصحنُ الأكبرُ الذي طوله من شرق الى غرب مئة شبر وثلاثة وتسعون شبراً ، وعرضه من قبلة الى جوف خمسة وسبعون شبراً ، وبلاطاته المسقفة أحد عشر بلاطاً ، ومساحتُه جميعه ثلاثة مراجع (140) وثلاثة أرباع المرجع السجلماسية ، ويملأه من المصلين ثلاثة عشرَ ألفَ شخص على أن يكونَ في البلاط سبعمئة وخمسة وستون شخصاً ، ويكون فيه أربعةُ صفوف وفي الصفِّ مئة وستون شخصاً ،

139) من هنا يبدأ بتر بضع صفحات من نسخة القصر الملكي ، وقد اعتمدنا على نسخة دار الكتب المصرية في تكميل النقص الموجود فيها .

140) جمع مرجع : مساحة يحسب بها الفلاحون قدر ألف متر .

وفي أوساط البلاطات مئة وخمسة وعشرون شخصاً بعد حطّ موضع السواري ، وعدد الثريات التي تسرجُ فيها المصابيح مئة وثلاثون ثريا جميعها من النحاس مختلفة الصناعات والأشكال والمهمات ، منها عشرة كبار معلقة في البلاط الأوسط ، ويندرج في هذه العشرة النواقيس المكففةُ بالنحاس وباقي الثريات وذلك مئة وعشرون معلقة في سائره ، وزعموا أن فيها من مراكز السرج ألفين ، يوقدُ بعضُها في سائر ليالي السنة ، ويكثر منها في ليالي رمضان ، ويوقدُ جميعُها في ليلة السابع والعشرين منه . وعدد الصبحيات التي توقد أيضاً فيه بطول ليالي السنة سبعون ، العراقياتُ منها خمسون ، وسائرها نابليات (141) وبلديات ، وعمل في خارجه بدائر حرمه في مواضع معروفة أربعون سراجاً يهتدي بها المارون في طرقه ، وقد اعدَّ لخدمة ذلك كله على الكمال وقاداً يحكمُ ذلك وأجرى له جراية من فائد أحباسه ، وينبغي أن تكثر سرجه وتغلظ فتائله اذا كثر ماله ، فان في الاضاءة بها بهاء وأنساً للمجتهدين ، ونفياً لمكان الريب ، وهداية للسابلة ، وتنزيهاً لبيوت الله عزَّ وجلَّ من وحشة الظلام ، ومبلغُ غلات أوقافه على اختلافها في بعض الأعوام عشرةُ آلاف دينار فضية ، ومن جملتها الفندقُ الكبيرُ الشهيرُ الذي بسوق الشماعين المحبس عليه من قبل أمير المسلمين مولانا أبي يعقوب رحمه الله ، وسبب تحبيسه أنه كان من جملة المال المستخلص لجانب الخلافة ، وخرب وأهمل ، فلما كان في أيام ولاية محمد الحدودي بفاس أمره القاضي إذ ذاك الفقيه محمد بنُ أبي الصبْر ببنائه واصلاحه ، فتوَقَّف في ذلك وأرادَ أن يكونَ باذن من الخليفة ، فأشهدَ به محمد بن أبي الصبْر المذكور على نفسه شهوداً انه ان لم يوقف له في المحاسبة والا فهوَ الملتزمُ لما أنفقَ فيه ، فبناه الحدودي على ما هوَ الآن عليه تحت نظر القاضي محمد المذكور ، ثم أعلم بذلك الخليفة أبو يعقوب رحمه الله فبعثَ الى الحدودي في ذلك فاعتذرَ له وبين له ما التزم له محمد ابنُ أبي الصبْر فاغتاظ لذلك الخليفةُ وأمرَ بإشخاصه ، وبعثَ إليه الحشَمَ قوماً

141) كانت تصنعُ في مدينة نابولي الايطالية فنُسبت اليها ، وفي المغرب نوعٌ آخرُ من الزجاج الرفيع الملون ينسب الى العراق فيقال للزجاج العراقي . -

بعد قوم وخيف من ذلك عليه . ولمّا بلغَ الحشمُ لإشخاصِه صارَ يستأني في الطلوع للخليفة والحشمُ يترادفون عليه ، ثم إنه طلع ومرَّ في اثناء ذلك على الزاوية التي دُفِنَ بها الامامُ الحافظُ أبو بكر بن العربي رضيَ الله عنه ، واذا بفقير خارج منها وهو يخاطبُ ابا عبد الله بن أبي الصبْر ويقول له : قل بخفيِّ لطفك ، بلطيف صنعك ، بجميل سترك ، دخلتُ في كنفك ، تشفعتُ بنبيك ، فحفظ ذلك ، ودخل على الخليفة وهو يكررُ هذه الالفاظ ، فأقعدَه بإزائه ، وأظهرَ له الإكرامَ والاعتناءَ به ، ثم سأله عن سبب أمره للحدودي ببنائه للفندق ، فقال له : أمرتُه بذلك ، فانه غلبَ على ظني أنك تحبسُه على جامع القرويين فاستحسنَ ذلك منه وشكره وأشهدَ في الحين بتحبيسه ، كذا كان يتكررُ النقلُ عن أبي عبد الله ابن أبى زرع وغيره ، وصارت هذه الألفاظُ التي دعا بها وكان تحبيسُ الفندق بسببها عند الناس كنزاً نافعاً ، وحرزاً دارعاً ، يتوسلون بها في حاجاتهم ، وظهر نجحها لكثير من الناس في مطالبهم ، ويذكر ان الرجلَ الذي ألقاها اليه هوَ الخضرُ عليه السلام .

وعددُ المؤذنين والقَوَمَةِ له في غالب الأوقات أربعون شخصاً ، ولهم على ذلك فوائدُ وعوائدُ مختلفة على مرِّ الاعوام .

واما قراءةُ الحزب من القرءان فيه بعد صلاة الصبح والمغرب فانه كانَ أمرَ به يوسفُ بن عبد المومن بن علي في سائر بلاده ، كذا نقله ابن صاحب الصلاة ، وانتدبَ لذلك ناس ، واستمرَّ الى ايالة مولانا أمير المسلمين ابي الحسن رحمه الله فأجرى جراية لعشرة من القراء راتبين لقراءته في سائر جوامع بلاده .

وأما قراءةُ الكتب فيه لاسماع الناس بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح فان بعضَ أئمة الجامع في أول ايالة بني مرين أعزهم الله كان كثيراً مايقرأ بين يديه في أول النهار تفسير القرآن للثعلبي ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وذلك في جهة خاصة منه ، وكان له قارىء محسن مجيد لذلك فيحضر له بعض الناس ، وكانوا يجلسون فيه متفرقين حلقاً حلقاً ، وربما يأخذون في أمور الدنيا الى أن يطلعَ النهار فينصرفون ، فأشارَ هذا الامامُ على القارئ أن يتصدرَ قربَ المحراب في الوقت المذكور ، ويقرأ هنالك

من هذه الكتب فصولا لاسماع الناس ، فاجتمع اليه سائرُ مَن كان يجلسُ به وانتفع الناس بذلك كثيراً ، وربما يجتمع في المجلس آلاف من الناس ، وذلك في سنة احدى وخمسين وستمئة ، واعلم بذلك مَن كانَ اذ ذاك من خلفائهم فاستحسنه واجرى للقارىء جراية ، ثمّ بعد ذلك زيدَ في قراءة الكتب قراءة الاحياء لأبي حامد الغزالي ، وفي ايالة مولانا المتوكل ابي عنان رحمه الله أمرَ بزيادة كتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض ، فاستمرَّ العملُ على ذلك حتى الآن .

ومما جرى في انتصاب قبلته فيما حُكِيَ عن أمير المسلمين أبي يوسف ابن عبد الحق رحمه الله لما أمر ببناء المدرسة اليعقوبية (142) التي بقبلته على يد قاضيه ابى امية الدولبي سنة خمس وسبعين وستمئة ، وكان الذي انفردَ بنصب قبلتها المعدل محمد ابن الحباك ولم يشاركه في ذلك غيره من أهل علم الهيأة ، وظهرَ انها منحرفة عن قبلة جامع القرويين أنهيَ الأمرُ في ذلك لمولانا أمير المسلمين أبي يوسف المذكور ، وقال بعضُ مَن حضره ممن لا يحسنُ العبارةَ في السؤال والجوابُ في ذلك إن في بعض مساجد فاس انحرافَ بعضها عن بعض ، فرأىَ رحمه الله ان جمعَ جميعَ فقهاء زمانه للنظر في ذلك ، فيُحكى انهم قالوا له أن جامعَ القرويين قد نُصبت قبلتُه على سمت القبلة التي نصبها الامامُ الصالح وليُّ الله ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ومرَّ على ذلك مئون من السنين ، وقد صلى اليها جماعة من العلماء والصلحاء والقضاة وأمراء العدل ممن يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ممَّنْ لا يحلُّ لأحدٍ أن يظنَّ بهم إلا خيراً فلم يغيروا ذلك ولا حرفوه ، وما يظهرُ في بعضها من الانحراف عن بعض قد يتقاربُ من الصواب على رأي مَن يرى أن المطلوبَ من قبلة مغربنا بل من قبلة سائر الآفاق انما هو لجهة مكة شرفها الله تعالى لاعين الكعبة ، والجهةُ في ذلك حاصلة ، وهو القولُ الراجحُ عندهم ، والا فكيفَ يقدرُ على تعيين السمت ، اعني سمت البيت الكريم ،

142) هي المدرسةُ التي تسمى اليوم بمدرسة الصفارين .

هاية ما عند الناس في الأقاليم الغائبة عن مكة شرفها الله تعالى المحافظةُ على جهة البيت لا سمته ، واجتهادُ الأكثر أقربُ الى الصواب ولايعدُ من الخطا ، وقد يؤثرُ مخالفة الاكثر الشنآن بين المؤمنين والادخال في صلاة المصلين ، وقد قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : ما بين المشرق والمغرب قبلة . فأقرَّ ذلك كله على حاله رحمه الله .

وقد سلم هذا الجامعُ من البدع القبيحه ، ولم يتعرض فيه لما نعرض في بعض جوامع الآفاق ، ومهما ظهرتْ فيه بدعة فان الله سبحانه يلهمُ من يزيلها فيزيلها ، وجرى في أول سنة تسع وأربعين وسبعمئة أن بعض المجودين (143) لقراءة القرآن فيه كان يقعدُ بين يديْه الاحداث من الصبيان لتجويد القرءان ، فيجتمعُ اليه الناسُ إلى أن حدثت فتنٌ بسبب ذلك ، فرفع ذلك للشيخ الفقيه الصالح المدرس عبد العزيز بن محمد القروي رحمه الله فأشارَ على بعض مَن له حكمٌ نافذ أن يشتدَّ في تغيير ذلك ويمنعه كل المنع ، فمنعهم وفرق جمعهم ، وأحسبه لما أن علم أن هذا الصبيَّ القارىء بين يديْ هذا الشخص ليس ممن يقصد التعلم ، وليس جلوسه كجلوس المتعلمين أمر باقامته عملا على ما في المدونة وغيرها من اقامة الذي يجلس في المسجد يومَ الخميس وغيره لقراءة القرآن ، ونظم اذ ذاك الشيخُ الاستاذ المقرىء علي بن سبع رحمه الله قصيدةً وقرئت على الشيخ عبد العزيز المذكور ، فكانت سبباً في اشتداده على قيام هذا القارىء والمقرىء . وها هي :

ألا حققوا عني مقالا هو الجدُّ	لمنهج أهل الحق يسعده القصد
أقول احتساباً ليس مني تعصباً	على أحد ممَّن ينظمه العقـد
ذوو العلم في الاقراء ضاعتْ صفاتهم	ولم يبقَ منها غير ما رسمُه يبدو
رياء وعجب وانتصاب وشهرة	وتسميع مَن يُرجا لتسميعه رفد
ألم ترَ فاسَ الغرب أعظمَ بقدرها	وجامعها العظمى التي هيَ تعتدُّ
لفعل عبادات تسوغُ وموطـن	لجمع رجال الله ياتونها وفـد

143) هنا ينتهي البتر الحاصل في النسخة الملكية .

بدت بدعٌ فيها ولا منكرٌ لها   وأبوابُها ان فتِّحتْ قلها السد
تبرزَ للإقـراء فيهـا جماعـةٌ   ولا خبرةٌ تبدو لديهم ولا نقد
وما لهم فهمٌ يُمَيِّزُ ما حوت   طريقةُ أهل الضبط حل ولا عقد
سوى نَغَـم يبدونهـا بتحنُّـنٍ   وتطريبِ ألحانٍ لمَن راح أو يغدو
فبعضُهمُ في جمعة وخميسِهـا   يجمعُ حفلا ليس يحصُره الحد
ويقرىء تلميذاً لـذلك خصَّه   لدى كلِّ أسبوع تعلمـه الصد
وعن مثل هذا حذرَ الحبرُ مالكٌ   وقال : لمَن يُبديه في المسجد الطرد
وبعضٌ بتلميذ له حسنُ صورة   شبابٌ له صوتٌ لنيل الهدى ضد
كأقراصِ نحل قد ملئن بسمِّها   فباطنُها حتفٌ وظاهرُها شهـد
فيقعـده إمـا مـلاصقَ جنبِـه   واما أماماً بارزاً للورى يشدو
يعظمُـه بالقـرب منـه مكانـة   وذلك عند الله جلَّ اسمُه بعد
ويعقبُه جزءاً من الوعظ رافعاً   به صوتَه كيما القلوبُ له تغدو
يردده في الحفل غضٌ بأهله   برفع وحطٍ هكذا الصدرُ والورد
وجلَّ كتابُ الله عن حالةِ الغنا   وتطريبِ أصواتٍ بها يقعُ الوجد
وهذا لعمرُ الله أكبرُ بدعـة   يقابلُها المنعُ المبـرحُ والـرد
لفاعلهـا ذمٌّ وتغليـظُ زاجـر   وأيضاً وعيدٌ في القيامةِ لا وعد
أينصب بالقرآن للأكل أو لما   يؤدِّي الى التحريم فاعلُه وغد
وما هـذه آثارُ قوم تقدمـوا   من أهل كتاب الله أفناهم الجهد
فقد عرفوا عندَ النهار بصومِهم   وفي ليلهم أيضاً أليفُهم السهد
ويتلونَـه والدمعُ قرَّحَ جفنَهـم   جواريـة تنسابُ قابلَهـا الخـد
مضتْ بهم الأعصارُ يبكى لفقدهم   فياأسَفي اذ حلَّ بي منهم الفقد
مضى سلفُ الأخيار أكرمْ بقدرهم   وأعقبَهم قومٌ قد ابتدعوا نُكـد
ولـيس لهـم فهمٌ بـه يتدبَّـروا   معاني كتاب الله إذْ منه يمتد
جميعُ علوم الخلق منه تفرعتْ   وكلُّ حدود الله فهوَ لها حد
أوامرُه والنهيُ قد وضحتْ به   ولكنَّ عينَ الجهل عن ذاك تستد
وقد حرمتْ فيه الفواحشُ كلُّها   سَوا ظهرت أو أبطنت حالُها فرد
وقد جاءَ بالإخلاص فيه أوامرٌ   وذمُّ رياءِ الناس جاءَ به السرد

فمَــن ردهــا أحكامــه متعنتــاً ... فقد رام أركانَ الشريعة تنهد
وفي صحبة الأحداثِ ما ليس يختفي ... من الذمّ إذْ في فعله عُدِمَ الحمد
مخالطهم في دينه سوف يرتدي ... ولو بعد حين إذ شياطينُهم جند
وقد جاء في بعض الأحاديثِ أنهم ... لهم فتنةٌ شبه العذراى فلا جحد
ولا يصلحُ الصبيانّ إلا لمكِتَب ... وليسَ لهم في موطن غيره رشد
فعمرو بن يوحنا ومدرك عبرة ... ببغداد اذ منها عُرى المنع تشتد
بها تضربُ الأمثالُ فاحذرْ سلوكَها ... طريقتـه حتـى يُغَيِّبَك اللحـد
فكمْ من جليل القدر قد حطَّ قدرَه ... ورفعتُـه لمـا تألّفـه المُـرْد
فإن تقبلوا نصحي فإني نصحتُكم ... ونفسي قد أوصيتُها ذاك لا تعدو
فمَن كان ذا نصح بعلم يعنْ به ... بإخلاص تقوى الله يتبعُها الزهد
وقـال الإمـامُ الشاطبيُّ وحبـذا ... بأبياتِـه اللآتـي تكفلهـا المجـد
خذوا النظمَ عني وانظروا منه سرَّه ... فلا يُخْتَشَى في الحق عَمروٌ ولا زيد
وإنى لأهل العلم والدين خادمٌ ... نعم ، واشهدوا أني لهم في الدنا عبد
فهم عمدتي فالله ينفعُني بهـم ... وتشملُني البشرى من الله ياسعد
وأما رعاعُ الناس من كل مدعٍ ... فليس لهم قبلٌ لديَّ ولا بَعْد
وليس على الأعمالِ منهم طلاوةٌ ... مقبحـة منها الصحائـف تسود
فهمْ مثلُ ما قالوا كذا هو عندنا ... ومَن أنتمُ حتى يكونَ لكم عند

ومدرك (144) المشارُ إليه في هذا الأبيات هوَ الذي أنشأ الرجزَ المزدوجَ المشهورَ في شأنِه مع عمرو بن يوحنّا النصراني لكونه كان يهواه ،

---

144) هوَ مدرك بن علي الشيباني الشاعرُ البغدادي الشهير ، كان من أفاضل أهل الأدب والمطبوعين في الشعر ، وكان له مجلسٍ يجتمعُ اليه الاحداث لا غير ، فان حضره شيخ أو كهل قال له مدرك : انه يقبحُ بمثلك ان يختلطَ بالأحداث والصبيان قمْ في حفظ الله فيقوم ! .

وكان عمرو بنُ يوحنا النصراني يسكن في الجانب الشرقيِ من بغداد بدار الروم ، وكان من أحسن الناس صورة وأجملهم خلقاً ، وممن يغشَوْن مجلسَ مدرك فعشقه مدرك وهام به ، وله فيه أشعار كثيرة ، منها القصيدة المزدوجة التي يوردها الجزنائي . وقد مات مدرك متأثراً بحبه لعمرو بعد ان سُلَّ جسمُه وأصابه الوسواس . أنظر أخبارهما في ديوان **الصبابة** لابن أبي حجلة التلمساني ، و **مصارع العشاق** لجعفر السراج القارىء ، وينبغي ان تقارن هذه المزدوجة بها مخمسة في **الأنيس المطرب** للشريف العلمي ص 221 .

وأدركته في ذلك فتنةٌ نعوذُ بالله من الضلال بعد الهدى ، وهو :

من عاشقٍ ناءٍ هواه دان ناطقُ دمعٍ صامتُ اللسان
موثَقُ قلبٍ مطلقُ الجُثمان معذبٌ بالصدِّ والهجران

* * *

من غير ذنب كسبتْ يداه كأنما عفاهُ مَن أضناه
شوقاً إلى رؤيةِ مَن أشقاه يشكو هوى نمَّتْ به عيناه

* * *

ياويحَه من عاشق ما يلقَى من أدمع منهلّةٍ ما ترقا
ناطقةً وما أحارتْ نطقا تخبرُ عن حبٍّ له استرقا

* * *

لم يبقَ منه غيرُ طرفٍ يبكي بأدمعٍ مثل نظام السلك
تطفئُ نيرانَ الهوى وتذكي كأنها قطرَ سحاب تحكي

* * *

إلى غزالٍ من بني النصارى عذارُ خدّيْه سبى العذارى
وغادرَ الأسدَ به حيارى في ربقة الحبِّ له أسارى

* * *

رئمٌ بدار الروم رامَ قتلي بمقلة كحلاء لا من كحل
وطرةٍ بها استطارَ عقلي وحسنِ وجهٍ وقبيحِ فعل

* * *

ما أبصرَ الناسُ جميعاً بدْرا ولا رأوْا شمساً وغصناً نضرا
أحسنَ من عمرٍو فدَيْتُ عمْروا ظبيٌ بعينيْه سقاني خمرا

* * *

ها أنا ذا بخدِّه مقدودُ فالدمع في خدي له خدود
ما ضرَّ مَن فقدي له موجود لو لَمْ يقبِّحْ فعلَه الصدود

إن كان ذنبي عنده الاسلام فقد سعت في نقضه الأيام
واختلت الصلاةُ والصيام وجاز في الدين لنا الحرام

* * *

ياليتني كنتُ له صليباً أكونُ منه دائماً قريباً
أبصرُ حسناً وأشمُّ طيباً لا واشياً أخشى ولا رقيبا

* * *

بل ليتني كنتُ له قُربانا ألثمُ منه الثغرَ والبنانا
أو جاثليقا(145) كنت أو مطرانا(146) كيما يرى الطاعةَ لي أمانا

* * *

بل ليتني كنتُ لعمرو مصحفاً يقرأ مني كلَّ يوم أحرفا
أو قلماً يكتبُ بي ما ألفا من أدبٍ مستحسنٍ قد صُنفا

* * *

بل ليتني كنت لعمرو عوده أو جبةً يلبسُها مقدوده
أو بركةً من اسمه مأخوذه أو بيعةً في داره مشهوده

* * *

بل ليتني كنتُ له زُنارا (147) يديرني في الخصرِ حيثُ دارا
حتى إذا الليلُ طوى النهارا صرتُ له حينئذٍ إزارا

* * *

قد - والذي يبقيه لي - أفناني وافتنَّ عقلي والضنا كساني
حبيّ على البعادِ والتداني حلَّ محلَّ الروح في جثماني

* * *

145) الجاثليق : رئيس للنصارى في بلاد الاسلام ، يكون تحت نظر بطريق أنطاكية .

146) رئيس ديني للنصارى في عاصمة العواصم .

147) حزامٌ يشدُّه النصراني في وسطه .

واكبدي من خدّه المضرج ... واحَرَبي من ثغره المفلّـج
لا شيءَ مثل الطرف منه الأدعج ... أذهبَ للنسك وللتحـــــرج

* * *

إليك أشكو ياغزالَ الأنس ... ما بي من الوحشة بعد الأنس
يامَن هلالي وجهُه وشمسي ... لا تقتلِ النفسَ بغير النفس

* * *

جذ لي كما جدتَ بحسن الودِّ ... وارعَ كما أرعى قديمَ العهد
واصددْ كصدِّى عن طويل الصدِّ ... فليسَ وجدٌ بك مثل وجدى

* * *

ها أنا في بحر الهوى غريقُ ... سكرانُ من حبِّك لا أفيقَ
محترقٌ ما مسَّني حريق ... قد رقَّ لي العدوُّ والصديق

* * *

فليت شعري فيك هل ترثى لي ... من سقَم ومن ضنى طويل
أم هل إلى وصلِك من سبيل ؟ ... لعاشقٍ ذي جسد نحـــيل

* * *

في كل عضو منه سقمٌ وألَم ... ومقلةٌ تبكي بدمع وبدم
شوقاً الى بدر وشمس وصنَم ... منه اليه المشتكى إذا ظلَم

* * *

أقولُ إذْ قام بقلبي وقعَد ... ياعمرو ياعامرَ قلبي بالكمد
أقسم بالله يمينَ المجتهد ... إن امرءاً تُسعدُه لقد سعِد

* * *

ياعمرو ناشدتُك بالمسيح ... إلا سمعتَ القولَ من فصيح
يخبرُ عن قلبٍ له جريح ... باحَ بما يلقَى من التبريح

* * *

ياعمرو بالحقِّ من اللاهوت(148) والروح روح القدس والناسوت(149)
ذاك الذي في مهده المنحوت عوضَ بالنطق عن السكوت

* * *

بحقِّ ناسوتٍ ببطن مريم حلَّ محلَّ الريق منها في الفم
ثم استقام في ختوم الأقدم يكلِّمُ الناسَ ولما يفطم

* * *

بحق مَن بعد الممات قمصا ثوباً على مقداره قد قصصا
وكان لله تقياً مخلصاً يشفي ويبري أكمهاً وأبرصا

* * *

بحقِّ محيي صورة الطيور وباعثِ الموتى من القبور
ومَن إليه مرجعُ الأمور يعلمُ ما في البر والبحور

* * *

بحقِّ مَن في شامخ الصوامع من ساجد لربِّه وراكع
يبكي اذا ما نامَ كلُّ هاجع خوفاً من الله بدمع هامع

* * *

بحقِّ قوم حلَقوا الرءوسا وعالجوا طولَ الحياة بوسا
وقرعوا في البيعةِ الناقوسا مشمعلين يعبدون عيسى

* * *

بحق ماره مريم وبولس بحقِّ شمعون الصفا وبطرس
بحقِّ دانيال بحق يونس بحق حزقيل وبيت المقدس

* * *

148 ـ 149) اللاهوت : الله كما يقال الناسوت للانسان ، وعِلمُ اللاهوت علمٌ يبحث في العقائد المتعلقة بالله .

ويوشع اذ قام يدعو ربّه   مُطهّراً من كل سوءٍ قلبَه
ومستقيلا فأقال ذنبَه   ونالَ من أبيه ما أحبَّه

* * *

بحقِّ ما في قلة البرون   من نافع الدواء للجنون
بحق ما يؤثر عن شمعون   من بركات النخل والزيتون

* * *

بحقِّ أعيادِ الصليب الزهر   وعيدِ أشموننا وعيد الفطر
وبالشعانين العظيمِ القدر   وعيدِ يومار الرفيعِ الذكر

* * *

وعيدِ أشعيّا وبالهياكل   والدخن التي بكفّ الحامل
يُشفى بها من كل خبل خابل   ومن دخيل السقم في المفاصل

* * *

بحقِّ سبعين من العباد   قاموا بدين الله في البلاد
فأرشدوا الناسَ إلى الرشاد   حتى اهتدى مَن لم يكن بهاد

* * *

بحقِّ ثنتيْ عشرةٍ من الأمم   ساروا الى الأقطار يتلون الحكم
حتى اذا جنح الدجا جلا الظلم   ساروا إلى الله ففازوا بالنعم

* * *

بحقِّ ما في محكم الإنجيل   من محكم التحريمِ والتحليل
وخبرٍ لربنا جليل   يرويه جيلٌ قد مضى عن جيل

* * *

بحقِّ مرعيد الشفيق الناصح   بحق لوتا ذي الفعال الصالح
بحق مكشحا الحكيم الراجح   والشهداءِ بالفلا الصحاصح

بحقّ معمودية الأرواح … والمذبح المشهور في النواحي

ومَن به من لابس الأمساح … وعابدٍ باك ومن نواح

* * *

بحق تقريبك في الآحاد … وشربك القهوةَ كالفرصاد

وطول تفتيتك للأكباد … بما بعينَيك من السواد

* * *

بحقّ ما قدس شعيا فيه … بالحمد لله وبالتنزيه

بحق نسطور وما يرويه … عن كل ناموس له فقيه

* * *

شيخان كانا من شيوخ العلم … وبعض أركان التقى والحلم

لم ينطقا قطُّ بغير فهم … موتُهما كان حياة الخصم

* * *

بحرمة الأسقف والمطران … والجاثليق العالم الربّاني

والقس والشماس والإيران … والنطر الأكبر والرهبان

* * *

بحرمة المحبوس في أعلا الجبل … وقارلوقا حين صلّى وابتهل

وبالكنيسات القديمات الأول … وبالسليخ المرتضَى بما فعل

* * *

بحرمة الأشعث والمقدم … وما حوى مغفر رأس مريم

بحرمة الصوم الكبير الأعظم … وحقّ كل بركة ومحرم

* * *

بحق يوم الذبح ذي الإشراق … وليلةِ الميلاد والسياق

والذهب المُذهب للنفاق … والفصح يامهذب الأخلاق

* * *

بـكل قـداس علـى قـداس ... قدسه القسُّ على الشمـاس
وقربوا يـوم الخمـيس النـاس ... وقدمـوا الكـاس لـكل حـاسي

• • •

إلا رأيتَ فـي رضا أديب ... باعده الحبُّ عـن الحبـيب
قد ذاب من شوق الى المذيب ... أغـلا منـاهُ أيسرُ التقـريب

• • •

فانظرْ أميري في صلاح أمري ... محتسباً في عظيـم الأجـر
مكتسباً فـي جمـيل الشكـر ... في نثرِ ألفاظٍ ونظمِ شعـر

ولولا ما التزمناه من ستر المجانات ، ودفن السيئات ، لشرحتُ ما ناله من المحن والآفات ، والله يعصمُ من الفتن والزلات ، بمنّه وكرمه وطوله .

وهذا الجامعُ قد يشكو بلسان حاله ، في بعض الأزمان عند إهماله ، وذلك إن الذين أسسوه ، وزادوا فيه الزيادات ورتّبوه ، وحبّسوا له الأوقاف وعظموه ، ومنعوا الصرفَ منها في غير وجهه وحذروه ، انما فعلوا ذلك بنيات صالحة ، وعزمات ناجحة ، ولكل امرىء ما نوى ، فينبغي أن يسلكَ فيه طريق الأولين ، ويتبعَ فيه سبيل المؤمنين ، والقيام بالمساجد ركنٌ من أركان الدين ، وطهارتُها ونظافتُها شرطٌ في صلاة المصلين ، وهي من بيوت الله الذي أذِنَ أن تُرفع ، وتطهرَ للقائمين والعاكفين والركّع ، وأحوال الدنيا الدنية فيها ممنوع ، وأعمال الديانة الأخروية فيها مشروع ، والصلاةُ هيَ أولُ ما ينظر فيه من أعمال العبد ، فإما القربُ من الله بقبولها ، أو الطردُ والردُّ بردِّها ، فرحم الله عبداً وفى حقَّها ، وأدى الامانةَ التي طوقها ، وضبطَ أحوالَها ، ونمّى مالَها ، وأخذه من حله بالطريق الفقهي بعد الاجتهاد ، وصرفه في مواضعه بالنظر الديني ووجه السداد ، فذلك يكونُ ممن رفع قدرها ، واستوجبَ من الله أجرها ، ومهما استصحبها الاهمال ، والأعراضُ والاغفال ، شكتْ إذ ذاك بلسان الحال ، إذ هوَ أفصحُ من لسان المقال ، يروى أن مسجداً من المساجد ارتفع إلى السماء شاكياً الى الله

بأهله لعملهم فيه أعمالَ الدنيا ، فاستقبلتْه الملائكة وقالوا بعثنا بهلاكهم ، حكى معناه الامامُ الطرطوشي في كتاب (**النهيُ عن الحوادث والبدع**) الذي من تواليفه ، وحملني على سرد هذه الفصول التنبيهُ لمَن ولِيَ أمرها من الغفلات ، وإيقاظهم من السنات ، عسى الله ينفعُني واياهم في الحياة وبعد الممات .

* * *

وأما جامعُ الأندلسيين فإن الذين اعتنوا بتاريخ فاس ذكروا انه ابتدىء البناءُ فيه سنةَ خمس وأربعين ومئتين على يد مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري بعد أن اشترتْ أرضَه بوجه صحيح ، وأنفقتْ في ذلك كله من مالها الموروث من أبيها ، وسُمِّي بذلك لأن الامامَ إدريسَ بن ادريس لما وفدَ عليه مَن وفد من أهل جزيرة الأندلس أنزلهم بالعدوة الشرقية من فاس ، فسميت بذلك عدوة الأندلسيين ، فلما أسسَ جامعها وكان ممن أعانَ على بنائه جملة من الأندلسيين الساكنين هناك سُمِّيَ بجامع الأندلسيين ، قال البكرى في مسالكه : انه كان من ست بلاطات وله صحن صغيرٌ فسيحٌ به أصول جوز وغيره من الأشجار وساقيةٌ غزيرة تعرف بساقية مصمودة (150) ، يذكرُ أن أحد عمال الناصر لدين الله المرواني حينَ تغلبوا على بعض بلاد المغرب زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التي فيه ، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وثلاثمئة حسبما كتب في عتبة بابها . ونقلت الخطبةُ اليه من جامع الاشياخ على يد الأمير حامد بن احمد الهمداني عامل عبيد الله الشيعي حين تغلب على فاس سنة احدى وعشرين وثلاثمئة . وكانَ أول خطيب خطب به الفقيه الصالح علي بن محمود الصدفي ، فلم يزل الأمرُ على ذلك الى أن زيدتْ فيه الزيادةُ المشارُ اليها على يد أحد عمال الناصر لدين الله ، ولم يزل كذلك الى أن أُنهِيَ للناصر الموحدي سنة ستمئة أنه يحتاجُ إلى الإصلاح والبناء ، فأمرَ ببناء البابِ الكبيرِ الجوفي الذي به المدرج ، وسعتُه عشرون شبراً ، وارتفاعه سبعة وعشرون شبراً ، وأدراجُه

---

150) ما زالت معروفة بهذا الاسم الى اليوم .

أربعَ عشرةَ درجة ، وبأسفل أدراجه شباكٌ من خشب الأرز فيه ثلاثة أبواب في الوسط ، منها بيلةٌ من الحجر الأحمر ينفجرُ لها الماءُ من وادي مصمودة الذي يمرُّ بأسفل هذا الباب الأكبر المذكور ليغسل الحفاةُ به أقدامَهم ، وصنع بأعلا هذا الباب قُبّتَيْن : إحداهما من جبص مقربسة من داخله ، والثانية من خشب الأرز من خارجه ، وكان بها طلسم للخطاف فلا يدخلها ولا يمرُّ بها ولا يعشّشُ فيها ، وتعطل في سنة عشرين وسبعمئة ، وأمر أميرُ المومنين الناصر أيضاً ببناء سقاية ومدخل لبيت صلاة النساء وعليهما مصريةٌ لأئمةِ الجامع ، وذلك عن يمين الخارج من باب المدرج المذكور ، وبالقرب من ذلك دار وضوء تحاكي التي بجامع القرويين في سنة أربع وستمئة . والبيلةُ والخصةُ اللتان بجوفي صحنيه مما يحاكي أيضاً بيلة جامع القرويين وخستّها ، أمر بعملهما السيد يحيى نجلُ خلفاء الموحدين وأنفقَ فيها من ماله ، ولم يزل الجامعُ كذلك إلى أن اعتلّ سقفه وجملةٌ من سواريه ، فأنهى خطيبُه الشيخ الصالح محمد بن أبي القاسم ابن مسونة أمرَ هذا الجامع لأمير المؤمنين أبي يعقوب رحمه الله فأمر باصلاحه على ما هو الآن عليه ، وذلك في سنة خمس وتسعين وستمئة . وكان الناصرُ الموحدُ قد جلب الماء له من عين بخارج باب الحديد ، فاعتلَّ في مواضع ، وجلب له الماءَ من وادي مصمودة إلى ايالة أمير المسلمين أبي ثابت عامر ، فأمر بجلب الماء له من العين التي بخارج باب الحديد ، وببناء السقاية بالجهة الغربية من جوفيه ، وذلك سنةَ سبع وسبعمئة .

وعددُ بلاطاته من شرق الى غرب خمسة عشر بلاطاً ، ومن قبلة الى جوف ثلاثة عشر بلاطاً ، وفي مقدم قبلتِه المرتفع مقدارُ بلاط بعد تعديل انحرافه بالمساحة ، وفي طوله على هذا من قبلةٍ الى جوف مئتا شبر ، وفي عرضه كذلك ، ويكون في البلاط الواحد وأساطينه من أشخاص المصلين ثلاثمئة شخص ، فعددُ ما يملأه من المصلين على هذا أربعة آلاف شخص ومئتا شخص .

وعددُ سواريه مئةُ سارية وأربع وثلاثون سارية .

وأما صومعتُه فسعةُ كل وجه منها ستة عشر شبراً ، وفيها من الأدراج أربع وسبعون درجة ، وارتفاعُها سبعون شبراً فيما ذكر ، وفي أعلا هذه الصومعة قبةٌ لجلوس المؤذنين لتداول الأذان ، وعددُ المؤذنين والقَوَمَةِ في هذا الجامع عشرون شخصاً ، ولهم عوائدُ وفوائدُ معلومة عندهم ، وقد عمل في أعلا هذه الصومعة صارٍ من خشب ينشرُ فيه علامٌ أبيضُ في أوقات صلاة النهار ، وفنارٌ مسرج في أوقات الليل في أول إيالة مولانا المتوكل أبي عنان رحمه الله ، والمؤذنون في هذه الصومعة يقتدون في أذانهم بأذان أهل جامع القرويين على العادة القديمة المتداولة إلى الآن .

وعددُ ثرياته الكبار والصغار إحدى وستون ثريا ، الكبارُ منها خمس قد علقن بالبلاط الأوسط منه ، وبقيتُهن في سائر الجامع في مواضع معلومة منه ، وفيه من الصبحيات العراقيات خمس بقرب محرابه ، وثلاثون بسائره ، وفي فرش صحنه من الآجر من شرق الى غرب مئة صف واثنان وثلاثون صفاً في كل صف مئتا آجرة وعشرون آجرة ، فيصحُ في تكسيره تسعٌ وعشرون ألف آجرة وأربع وسبعون آجرة .

ولهذا الجامع من الأبواب تسعة ، فمن الجانب الغربي ثلاثة ، ومن الجوف باب المدرج المذكور ، ومن الجانب الشرقي خمسة منها اثنان يدخل منهما مقدمُ الجامع الذي يصلي فيه على الجنائز ، وبين مقدم الجامع وبيته الأعظم بابان مدرجان احدُهما عن يسار المحراب لدخول الخلفاء مهما أرادوا شهود صلاة الجمعة ، والثاني عن يمين المحراب والمنبر ، ومنه يخرج الخطيب يومَ الجمعة للخطبة ، ومنه يتوجهُ للصلاة على الجنائز .

وكان جملة من العلماء يدرسون العلم في مواضعَ من هذا الجامع ، وكانوا أهلَ شوري ممن يقتدَى بهم يقصدهم الناس من أقطار البلاد ، فمن مجود لتلاوة القرءان ، ومن مدرس ، ومن طالب لما شاء من فنون العلم في مجالس شتى منه . وكان أيضاً جملة من الصلحاء والعباد يلتزمونه قد تفرغوا للعبادة بعد تحصيل العلم ويقصدُهم الناس للفتاوي وطلبِ العلم

والأدب والتماس الدعاء . فمن المتقدمين الملازمين لهذا الجامع الفقيه الصالح الوليُّ الورع جبر الله بن القاسم الأندلسي نزيل عدوة الأندلسيين من فاس ، وهو ممن ادخل علمَ مالك اليها ، وهو من مشاهير فقهائها ومتقدميهم ، لقَيَ أصبغَ بنَ الفرج وسمِع منه ، كذا قال صاحب (المدارك) . حدث عنه أن رجلا رأى في النوم كأن قائلا يقول له : ان شئت أن ترى نظيرَ معاذ بن جبل فصلِّ في الجانب الغربي من جامع الأندلس ، فالرجلُ الذي يدخل وعليه برنس وصفته كذا وكذا هو ذاك ، ففعل الرجل ذلك ، فاذا بجبر الله بن القاسم على الصفةَ التي ذكر له القائل في النوم ، وهوَ رضِيَ الله عنه ممن لحق دراس بن اسماعيل رضِيَ الله عنه ، ويذكر أن دراساً لما قدم بكتاب محمد ابن المواز قال له جبر الله ابن القاسم : ما الذي جئتَ به ؟ فأخبره عن الكتاب المذكور ، فقال له انكرُ منه ، فجعل دراس يذكرُ المسائل ، وجعلَ جبرُ الله يجيبه بما حفظ وما لم يحفظه قاسه على أصول أصحاب مذهب مالك . فما خالفَ كتابَ محمد بن المواز الا في مسألة الثور اذا اشتراه انسان في أوان الدراس ولم يشترط أنه دراس فوجده لا يدرس ، فهل هذا عيبٌ يرد به أم لا ؟ كذا ألفيَ بخط الفقيه محمد بن القاضي الأعدل أحمد بن الميمون الفشتالي .

وممَّن كان يلتزمُ هذا الجامعَ وولِيَ القضاءَ بعدوة الأندلس الفقيهُ الصالحُ القاضي الأعدل الورع عبدُ الله بنُ محمد ابن محسود الهواري (151) قدم من قرية بأَوَرْبَة ونزل في جهة باب بني مسافر من عدوة فاس بالأندلس ، وكان عدلا في احكامه ورعاً لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، رحل الى القيروان ، ولقيَ به الفقيهَ الحافظَ عبد الله بن أبي زيد رحمه الله ، وشاهد تأليفه للنوادر ، وكان عنده من رجال **المدونة** ، وكان رحمه الله أخرجَ زياداتِ مختصرِ ابن أبي زيد على **المدونة** ، ثم ولِيَ القضاءَ بفاس كما ذكر . وكان رضيَ الله عنه رجلا متقللا من الدنيا مجتهداً في الأحكام ، أقام الحدودَ كلها : قتل وصلب وقطع الأيديَ وأقام اللعان . ولما تُوفيَ رحمه الله طُلب في فاس مَن يعامله في شيءٍ فلم يوجدْ له معامل ، فبحث عن سمنه وزيته من أين يشتريه ؟ فوجد له صاحبٌ بمكناسة الزيتون يشتري له الزيتَ ويبعثُه

151) انظر عنه جذوة الاقتباس ص 235 و سلوة الأنفاس 3 : 160 والتشوف ع 17 .

إليه ، وكانَ له بقيرتان ، ويأتيه قوتُه من هوارة ، وزوجتُه تغزلُ له كسوتَه من الثياب القطنية ، حدث عنه أنه نزلَ به ضيفٌ وهو قاض ، ولم يكنْ عنده في ذلك الوقت ما يقيم به ضيافةَ ضيفِه ، فأعطتْه زوجتُه شيئاً من غزل فأعطاه لبقال كان يقربُ منه رهناً في شيءٍ من سمن ، فأعطاه سمناً حاراً لم يقدرْ على أكله ، فلما كان بعد أيام وهو قاعدٌ في موضع أحكامه وصل إليه ذلك البقالُ مع رجل آخرَ يطلبه بشيءٍ له قبله ، فلما رآه القاضي قامَ من مجلسه ، وقال لبعض جلسائه : احكمْ بين هؤلاء فإني أقومُ إلى شغل ، فحكمَ ذلك الرجلُ بينهما وانصرفا ، فلما رجع القاضي لموضعه أعلمهم أن ذلك البقالَ فعل معه كذا وكذا ، وقصَّ عليهم أمرَ السمن وقال : خشيتُ الآن أن يجلس بين يديَّ للحكومة أن تميلَ نفسي عليه أوْ لا أسمعُ منه كما أسمعُ من خصمه ، فتركتُ القضاءَ بينهما لأجل ذلك ، توفيَ رضيَ الله عنه سنة احدى وأربعمئة ، وقبره شهيرٌ بباب الجيسة عليه جرواو (152) من الحجر ، والدعاءُ عليه مستجابٌ نفع الله به .

ومنهم الشيخ الفقيه يوسف بن محمد بن يوسف ابن النحوى (153) كان رحمه الله ونفعَ به من أهل العلم والزهد والجدِّ والاجتهاد ، وكان رضيَ الله عنه مجابَ الدعوة ، حدثَ عنه أنه لما دخل الرومُ مدينةَ صقلية وخرجَ منها مَن كان من أهل الاسلام - خرج منها رجلٌ من أعيانها وكان موسراً ، فلما خرجَ إلى بلاد الإسلام عميَ فنامَ ليلةً فرأى النبيَّ صلى الله عليه وسلمَ في منامه ، فقال له يارسولَ الله : ابتليتُ بالجلاءِ عن بلدي وعن مالي ثم فقدتُ بصري ، قال : فجرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلمَ يدَه على وجهه فأبصرَ الرجل ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلمَ اقرأ السلامَ مني على أخي

---

152) سياج - حائط ، والكلمة بربرية .

153) أبو الفضل يوسف ابن النحوي من أهل قلعة حماد بالمغرب الأوسط ، وأصله من توزر ، دخل سجلماسة وفاس ، ثم عاد الى قلعة حماد وبها توفيَ عامَ 513 صحب أبا الحسن اللخمي ، وأخذ عنه محمد بن علي ابن الرمامة وموسى بن حماد الصنهاجي وغيرهما ، وكان ابن النحوي من أهل العلم والفضل وعلى هدي السلف الصالح ، ولما أفتى فقهاءُ المغرب بإحراق كتاب **إحياء علوم الدين** للغزالي ووصل كتابُ عليِّ بن يوسف بن تاشفين بالتحريج عليه انتصرَ ابنُ النحوي للغزالي وكتب للسلطان في ذلك . له أخبار كثيرة تراجع في **التشوف** ع 9 .

عيسى ! فاستيقظَ الرجلُ وقد رجعَ اليه بصرُه ، وكان يرى أنه يدرك زمانَ عيسى عليه السلام ، ثم توفيَ الرجلُ بعد ذلك ، فأخبر الفقيه ابن النحوى بخبر الرجل ، فقال رحمه الله : ما أرادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله للرجل اقرأ السلامَ على أخي عيسى أنه يدرك زمانه ، وانما أراد أن عيسى عليه السلام كان يبرىءُ في اليقظة وأنا أبرىءُ في المنام . وحُكِيَ عن الشيخ الصالح على ابن حرزهم رحمه الله أنه قال : قال لي والدي رحمه الله : امشِ للفقيه ابن النحوي واسأله في الدعاءِ فانه رجلٌ صالح . فأتيتُ المسجدَ الذي كان يصلي فيه ، فوجدتُه فيه وذلك عند صلاة المغرب ، فسلمتُ عليه فقال لي : ابن مَن أنت ؟ فقلتُ له ابن إسماعيل ابن حرزهم ، فدعا لي ، ثم أقيمتْ صلاة المغرب فدخل المحرابَ ووقف ليكبر ، فرأيتُ الثوبَ الذي عليه يرتعدُ على منكبيْه لما غلب عليه من الهيبة والخوف .

ومنهم الشيخ الصالح محمد بن أحمد ابن وشون (154) ، كان رحمه الله ونفعَ به مشهوراً بالخير والعفاف ، وكان إماماً بجامع الأندلس شرفه الله بالذكر فيه من مدينة فاس خرج الى الحج وجاهد في سبيل الله . حُكِيَ عنه رضيَ الله عنه أن الواليَ وجَّهَ اليه أن يتولى قضاءَ مدينة فاس عدوة الأندلس ، فامتنع كل الامتناع ، ولم يقدرْ عليه في الاجابة لما اريدَ منه ، فأمرَ بسجنه وتكبيله ، وأن يكون سجنُه في داره ، فبقيَ على تلك الحال مدة ، فلما كان في يوم الجمعة أمرَ مملوكاً له يسمَّى سليمان أن يقربَ له ماءً يتوضأ به للصلاة ، فلما أخذ في الوضوءِ انحلَّ الكبلُ من رجليه من غير واسطة كرامة له ، نفع الله به .

وقصدُنا بهذه الحكاية وأمثالها البركةُ في سرد تواريخهم ونشر أقوالهم رجاءَ نزول الرحمة عند ذكرهم وذكر أمثالهم ، قال سعيد بن عيينة رضيَ الله عنه : عند ذكر الصالحين تنزلُ الرحمة . وقال بعض المشايخ : حكايةُ الصالحين جند من جنود الله تعالى يثبتُ بها قلوبَ أوليائه . قال : وشاهده

154) توفي سنة 529 انظر عنه جذوة الاقتباس ص 234 .

قوله تعالى : **وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبتُ به فؤادك** . وقال عبد الله بن جبير : سمعتُ محمدَ بنَ يونس يقول : ما رأيتُ أنفعَ للقلب من ذكر الصالحين ، وقال سفيان للفضيل بن عياض في كلام جرى بينهما : ان لم نكنْ صالحين فإنا نحبُّ الصالحين . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : المرءُ مع مَن أحب ، ولله درُّ القائل :

أحبُّ الصالحين ولستُ منهم	لأنني بهم أرجـو الشفاعـه
وأبغضُ مَن بضاعتُه المعاصي	وان كنا سواءً في البضاعه

وهنا انتهى القول فيما قيدتُه واختصرتُه ، والله سبحانه ينفعُ بما نويتُه وقصدتُه ، مع أني لستُ من أهل التأليف ، ولا من أولي المعرفة بالتصنيف ، فمن نقلَ ما قاله الناس ، فما عليه في نقله من باس ! وأنشدت :

لعمرُ أبيك ما نُسِبَ المعـلاَّ	إلى كرم وفـي الدنيا كريـم
ولكـنَّ البـلادَ اذا اقشعـرَّتْ	وصوَّحَ نبتُها رُعِيَ الهشيـم

فَمَنْ وجدَ خطأً فليصفَحْ ، أو زللا فليسمحْ ، فالعصمةُ من الخطأ مُتعذِّرة ، وأوقاتُ البحث غيرُ مستحضرة ، والأمرُ كله لله ، ولا حولَ ولا قوة الا بالله ، وحسبُنا الله وكفى ، وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى ، وعلى آله وسلمَ تسليماً كثيراً أثيراً .

انتهى والحمد لله (155) .

---

155) بعد هذا في آخر نسخة دار الكتب المصرية ما يلي :

كمل هذا المختصرُ المبارك بحمد الله وحسن عونه على يد كاتبه العبيد الخطاء الضعيف ، الراجي عفوَ سيده الكريم اللطيف ، الجيلاني بن الحاج عبد السلام الغرابلي القصري الدار والمنشأ غفر الله له ولوالديه ، كتبه لمحبه وابن سيده الخير الأصلح ، ذي الرأي والعقل الراجع الأنجح ، السعيد الأربح ، سيدي عبد الله بن الوليِّ الصالح سيدي محمد بن القطب الكامل الناجح سيدي الجيلاني بن عبد الله المصباحي الشريف الحسني ، نفع الله به الناسخَ والمنسوخَ له بمنه وفضله وكرمه آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى عامَ أربعة وسبعين ومئة وألف .

مواقعُ
أسماءِ الأماكن والمباني الفاسية
الواردة في هذا الكتاب

وردتْ في جنى زهرة الآس أسماءُ بعض أحياء فاس وأماكنها ومبانيها ، ومن هذه الأسماء ما دثرَ من زمان تأسيس المدينة الى زمان المؤلف ، ومنها ما دثرَ من عصره الى عصرنا ، ومنها أسماءٌ بقيتْ على حالها الى اليوم لم تندثرْ ولم تتبدلْ ، ونرى من المفيد ان نثبتَ تلك الأسماء جميعاً ونحاولَ تحديدَ مواقعها جهدَ الامكان .

أغـلان ـ اتفق الجزنائي وابنُ أبي زرع على أن ادريس الثانيَ فتح باب الفصيل المعروف الآن بباب النقبة بأغلان ، لكن ابن أبي زرع يجعلُ أغلانَ أوسعَ من ذلك ، ويذكرُ أن إدريسَ فتح في أوله من جهة باب الجيسة باباً آخر أغفله الجزنائي يُدعَا بابَ الفرس ، فيكونُ أغلان على هذا هوَ مكان حومتي فندق اليهودي والبليدة الحاليتين .

باب أبي سفيان ـ اتفقَ الجزنائي وابنُ زرع على أن ادريس فتح هذا البابَ برأس حجر الفرج ، وزادَ ابنُ أبي زرع انه يخرج منه الى غمارة والى الريف ، وهوَ أصلُ باب بني مسافر الذي يعرفُ اليومَ بباب سيدي بوجيدة (انظر حجر الفرج) .

باب افريقية ـ هوَ أولُ باب انشأه ادريسُ بعدوة القرويين ، ويتفقُ الجزنائي وابنُ أبي زرع على أنه فتح برأس عقبة عين علون ، ولكنَّ ابن أبي زرع (ص 22) يقتصر على قوله (وهو أول باب صنع بالمدينة المذكورة) ، بينما يزيدُ الجزنائي العبارة التالية : (وبه يعرفُ الآن ، وجدده

مو لانا المستعين ووسعه وذلك في شوال سنة ستين وسبعمئة) . وهذه العبارةُ بو فعٌ في التباس ، والمظنونُ أنها كانت تتعلق بباب آخر فأضيفتْ خطأ من المؤلف أو الناسخ الى هذا الباب ، ولو كان ذلك صحيحاً لما كان الأمرُ يعنى غير باب بوجلود القديمة (1) ، لأن فاس أخذتْ شكلَها الحالي قبلَ عصر الجزنائي بكثير ، وجميعُ المباني التي أنشأها المرينيون بين عين علون وعصبة بوجلود معروفة بأسمائها وأعيانها الى اليوم ، ومن أعظمِها المدرسةُ البوعنانيةُ ومسجدُ الشرابليين ، أما موقعُ باب افريقية الذي انشأه الامامُ ادريس فالظاهرُ انه أصلُ البابِ الصغير الحالي الذي يفصلُ عقبة الشرابليين عن سوق الطرافين ، وان السورَ الادريسي كان يمتدُّ يمنةَ هذا الباب ويسرته .

باب بني مسافر - باب سيدي بوجيدة الحالي ، وكانَ في الأول يُدعا باب أبي سفيانٍ ، ولعلَ بني مسافر اسم قبيلة أو عشيرة عربية كانت مستقرة هنالك ، فأضيفَ البابُ اليها .

باب الجيزيين - هوَ بابُ الحمراء الحالي ، يقعُ عن يمين الخارج من باب فتوح ، وهو منسوبٌ الى قبيلة كانت مستقرة قربه عند تأسيس المدينة ، او الى سكان جيزة وادي فاس ، وكان البابُ مفتوحاً وأغلقَ على ما يقال - لدم خروج الدراس بنُ اسماعيل منه ميتاً ، يحكى أن جثةَ الدراس سقطتْ عن رؤوس الحاملين لها به ، فرئيَ في المنام فقال لرائيه : نزلتُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلمَ لأنه كان بجنازتي . فأغلقَ البابُ بسبب ذلك .

وكانتْ وفاةُ الدراس في ذي الحجة سنة 357 .

باب الحديد - يفهم من كلام الجزنائي أنَّ فاس عرفتْ اثناءَ تاريخها بابين دعي كلاهما باب الحديد ، أحدُهما فتحه ادريسُ قرب عيون ابن الصادي بين باب السلسلة وباب القلعة ، والثاني هو بابُ الحديد الحالي الذي

---

(1) بني باب بوجلود الحالي وفتح سنة 1331 هـ (1913 م) أما بابُ بوجلود الأصلي فهو الباب الصغير الواقعُ على يمين الخارج من الباب الكبير الحديث .

فتح فيما بعد ، اما ابنُ أبي زرع - وهوَ أقدمُ منه وأصحُ منه رواية ، وأهمُّ مصدر ينقل عنه - فلا يفيدُ كلامه وجودَ بابيْن بهذا الاسم ، وانما بابٌ واحد فقط ، وهو يجعلُ موقعه بالجرف لا بعيون ابن الصادي أو ابن اللصاد ، ويزيدُ في تحديد موقعه فيقول انه في أعلا القلعة مما يلي الجرف ، وعيونُ ابن الصادي أو ابن اللصاد هيَ في الغالب التي تسمَّى اليوم (العيون) فقط ، واليها تنسبُ حومة شهيرة ، أما الجرفُ فهوَ المرتفعُ المطلُّ عليها حيثُ يقعُ ضريح سيدي أحمد الشاوي ، وقد كان مدلوله يشملُ جميعَ الأحياء الواقعة خلفه من ناحية الجنوب الغربي . وفي تقديري ان موقعَ باب الحديد الادريسي كان بمدخل حيِّ العيون الحالي من جهة عقبة سيدي محمد بن الفقيه أو من جهة جزاء ابن عامر .

باب حصن سعدون - لم يذكر الجزنائي هذا البابَ مع انه يعتمدُ ابنَ أبي زرع فيما يكتب ، ويظهرُ أنه سها عن بعض الجمل وهو ينقل عنه ، ونص كلام ابن أبى زرع بعد ما ذكر تأسيسَ ادريس لباب افريقية برأس عقبة عين علون (ثم هبط بالسور على عين دردورة ، حتى وصلَ به الى عقبة السعتر ، فصنع هناك باباً وسماه باب حصن سعدون ، ثم هبط بالسور الى أول أغلان ، فصنع هناك باباً وسماه باب الفرس) وبابُ الفرس هوَ الذي حرف الى باب القوس عند الجزنائي ، وبابُ حصن سعدون هو أصلُ باب الجيسة الحالي ، والمكانُ الذي بُنِيَ فيه هذا البابُ هو مكانُ قوس ساباط حومة الحفارين فوق رحبة الزرع القديمة (سلوة الأنفاس 1 : 190) .

باب الخوخة - معروفٌ بهذا الاسم الى اليوم ، وكان في الأصل يُدعا باب الكنيسة ، ومنه كان يخرجُ الى تلمسان ، وقد بناه الناصرُ الموحدُ حين جدد سورَ المدينة سنة 601 وكانت حارةُ المرضى خارجَ هذا الباب ، ثم انتقلوا في زمان المجاعة التي استمرتْ من سنة 619 الى سنة 637 الىَ الكهوف القريبة من الوادي بمطامر الزرع وجنة المصارة الى ان نقلهم العاملُ إدريس بن أبي قريش عامل يعقوب بن عبد الحق المريني الى كهوف برج الكوكب الذي بخارج باب الجيسة سنة 658 . وقد أغلقَ بابُ الخوخة فيما بعد ، ولم يفتحْ الا منذ نصف قرن عندما انشئت محطةُ القطار بباب فتوح ووضع مخطط بناء حومة باب الخوخة والفخارين .

باب الكتبيين ـ أحدُ أبواب جامع القرويين ، يلي بابَ الشماعين من جهة حومة السبيطريين .

باب الكنيسة ـ بابُ الخوخة الحالي ، بناه ادريس بكرواوة ، ومنه كان يخرجُ الى تلمسان وحارة المرضى ، ولم يزل البابُ على ما بناه عليه ادريس الأول الى ان هدمه عبد المومن بن علي الخليفةُ الموحد عند ما فتحَ فاس وهدم أسوارها سنة 540 فبقّي مهدوماً الى ان بناه الخليفةُ الناصرُ سنة 601 وسماه باب الخوخة ، ولعل تسميتَه بباب الكنيسة تدلُ على سكنى طوائف من النصارى قربه بعد تأسيس فاس .

باب المحروق ـ بابٌ شهيرٌ بفاس يخرجُ منه الى قصبةِ الشراردة وظهر الخميس ، كان في الأصل يُدعا باب الشريعة ، ولما بناه الخليفةُ الموحدُ محمد الناصر بنُ يعقوب المنصور سنة 600 اتفقَ ان ثارَ بجبال ورغةَ ثائرٌ يدعا العبيدي ، فقبضَ وسيقَ الى فاس فقُتلَ وعُلق رأسُه على باب الشريعةَ في اليوم الذي تمَّ فيه بناء الباب وركب مصراعُه ، وأحرقَ شلوه فسمِّيَ البابُ من ذلك التاريخ بابَ المحروق ، ويظنُّ بعضُ الناس ان باب المحروق سمِّيَ كذلك لاحراق أديب الأندلس الكبير محمد ابن الخطيب به ، ووجود ضريحه على بعد خطوات منه ، وليس ذلك بصحيح ، فان البابَ سمِّيَ بذلك قبلَ قتل ابن الخطيب واحراق جسده بمئة واربع وسبعين سنة ، وقد اشتهرَ بابُ المحروق بكثرة ما كان يعلقُ فوقَه من رءوس الثوار والمذنبين والمغضوبِ عليهم من السلاطين ، حتى أصبحَ يقالُ في فاس (قطعْ لي رأسي وعلقو فْباب المحروق) ، وآخرُ الرءوس التي علقتْ عليه رءوسُ الثوار أصحاب الجيلالي الزرهوني المعروف ببوحمارة ، علقت عليه بعد إعدامه واعدامِهم سنة 1327 (1909) .

باب المخفية ـ المخفيةُ حيٌّ شهيرٌ بعدوة الأندلس من فاس ، وقد اتفقَ الجزنائي وابنُ أبي زرع على ان ادريس الأول فتح هذا البابَ أمامَ باب الفرج المعروف الآن بباب السلسلة من عدوة القرويين ، فيكونُ بابُ المخفية هو المدخل الحالي لدرب سيدي العواد .

باب المطمر - كانتْ مطامر فاس توجدُ خارجَ سورها الواقع أمامَ ضريح سيدي بوبكر بن العربي وداخله حيث الهري القديم وساحة ابن البغدادي الحالية . والمظنونُ ان بابَ المطمر هو البابُ الذي يدخلُ منه حالياً إلى ساحة ابن البغدادي والذي كان مغلقاً ثم فُتح حديثاً ، أو باب بوجلود الصغير الذي كان يتصلُ بقصبة الموحدين ، وبالمطامر الواقعة داخل السّور .

باب النطاعين - النطعُ في اللغة بساطُ الجلد ، والنطاعُ صانعه وبائعه ، والنطاعين هو عربي كلمة السبطريين الإسبانية ، وبابُ النطاعين هوَ بابُ جامع القرويين الواقع بأعلا عقبَة السبيطريين أمامَ الرحبةِ التي يلتقي فيها سماطُ العدول بالقنانبيين ، وقد كانت الحوانيتُ الموجودةُ بالرحبة المذكورة أمامَ الباب المذكور لا تبيع الا الكتب ، لكنِ (السبيطريين) حلوا محلَّ الكتبيين فيها في السنين الأخيرة بعد ما نقلت الدراسةُ من جامع القرويين الى معهد الزربطانة وقصبة الشراردة وظهر المهراس .

بابُ النقبة - معروفٌ بهذا الاسم إلى الآن بعدوة القرويين برأس العقبة المفضية الى قنطرة بين المدن ، وهوَ من الأبواب التي فتحها الامامُ ادريس الثاني ، وكان في الأول يدعى باب الفصيل .

باب عجيسة - أنشيءَ هذا البابُ بأعلا عقبة الصعتر في القرن الرابع الهجري ، أنشأه الأميرُ عجيسة فوقَ باب حصن سعدون وسمّاه باسمه لما أدار السورَ على أرباض المدينة عندما كثرت العمارةُ بها كما فعلَ أخوه فتوح في عدوة الأندلسيين ، فلم يزلْ بابُ عجيسة على حاله بقيةَ أيام زناتة وطيلةَ أيام لمتونة إلى أيام الخليفة الموحد الناصر ابن يعقوب المنصور فأمر ببناء سور فاس الذي هدمه جده الخليفة عبد المومن بنُ علي حينَ استيلائه عليها ، وصنع في هذا السور باباً كبيراً فوق باب عجيسة القديم وبالقرب منه وترك بابَ عجيسة على حاله ، ثم أمر بتغيير اسم الباب الذي بناه وترك اضافتَه الى عجيسة ، فأسقط الناسُ حرفَ العين من عجيسة وجعلوا الألف واللام عوضاً عنها فقالوا باب الكيسة كما ينطقُ بهآ الآن ، وقيلَ ان الذي

أمر بتغيير الاسم هوَ الأميرُ فتوح لما ظفر بأخيه عجيسة ، ولم يزلْ هذا الباب على حالته إلى ان دبَّ اليه الخرابُ في أول الدولة المرينية ، فعرفَ بذلك أميرُ المؤمنين يعقوب بن عبد الحق المريني وهوَ مجاهد ببلاد الأندلس ، فنفذَ أمره من الجزيرة الخضراء ببنائه واصلاحه ، فجدد جميعُه ما عدى القوس البراني فانه وجد صحيحاً فترك على حاله ، وتمَّ ذلك سنة 684 .

باب فتوح - بابٌ شهيرٌ بعدوة الأندلس من فاس ، وهوَ أولُ باب بني بها ، كان في الأول يسمَّى بابَ القبلة ، ولم يزل على حالته التي بناه ادريسُ الثاني عليها الى أن هدمه الأميرُ المصلح دوناس بنُ حمامة بن المعز ابن عطية الصنهاجي ، فلما توفيَ في شهر شوال سنة 452 اقتسمَ ولداه الفتوح وعجيسة ملكَ فاس ، فكان فتوح بعدوة الأندلسيين وعجيسة بعدوة القرويين ، وحدثتْ بين الأخوين نفرةٌ فحروب ، فبنى فتوح قصبةً منيعة بالموضع المعروف بالكذان ، وأعادَ بناءَ باب القبلة ونسب إليه فصار يُدعا باب فتوح منذ ذلك التاريخ .

وقد أشار سيدي محمد بن جعفر الكتاني في **سلوة الأنفاس** (2 : 163) في ترجمة سيدي البناد إلى أن قبره موجودٌ عند قوس باب فتوح الأول الذي سدَّ عن يسار الخارج منه ، فالظاهرُ أن هذا البابَ هوَ البابُ الزناتي الذي حلَّ محلَّ بابِ القبلة الادريسي ، أما بابُ فتوح الكبيرُ فهوَ من عمل الموحدين .

وتجدرُ الاشارةُ الى أنه فتحَ في السنين الأخيرة بابان جديدان عن يسار الخارج من باب فتوح ، احدهما يسامت شارع الفخارين ، والثاني مجاور لقصبة تمدرت . فهذان البابان فتحا حديثاً ولا علاقة لهما بباب القبلة الادريسي ، ولا بباب فتوح الزناتي .

باب الفصيل - بابٌ أسسه الامام ادريسُ الثاني بأغلان من عدوة القرويين ، يعرفُ اليومَ بباب النفقة . قال ابن أبي زرع : وهوَ البابُ الذي يخرج منه الى بين المدينتين (بين المدن) .

بابُ الفوارة ـ الفوارةُ مكانٌ معروفٌ بهذا الاسم الى الآن بأعلا رأس الزاوية من حومة المخفية حيثُ ضريحُ سيدي أحمد بن عبد الله ، ويصرحُ ابن أبي زرع في تاريخه أن هذا الباب الذي أنشأه ادريس الثاني هوَ الذي صار يُدعا في زمانه باب زيتون ابن عطية ، وأنه مبني (مغلق) لم ينفتحْ من سنة 620 ، وبما أنِ زيتونَ ابن عطية هوَ الزيتون الواقع ما بين باب الجديد وباب الحمراء داخلَ السور وخارجَه فلا شكَّ أن البابَ المذكور كان يوجدُ قريباً من الزيتون المذكور ، وقد ذكرَ بعضُ المؤرخين أن بابَ الفوارة كان يوجدُ أمام سور عرصة (الكروني) عند مدخل وادي الزيتون . وفي السور هناك ما يدلُّ على وجوده .

بابُ القبلة ـ يعرفُ اليوم بباب فتوح (انظر باب فتوح) .

باب القلعة ـ ذكر الجزنائي أن ادريسَ فتحَ هذا البابَ بأعلا عقبة الجرف ، فيكون في تقديري هو البابُ الذي يخرجُ منه من سيدي احمد الشاوي الى السياج أو بابُ السياج الفوقي الواقع أمام الزريطانة بين دار عبابو والمسجد . أما ابن أبي زرع فتفيدُ عبارتُه ان باب القلعة كان أعلا من ذلك .

باب القوس ـ ذكر الجزنائي أن ادريسَ الثانيَ أنشأ هذا البابَ بعقبة الصعتر ، فيكون هو بابُ الكيسة الحالي أو قريباً منه . أما ابنُ أبي زرع فيذكر أن البابَ الذي أسسه ادريس بعقبة الصعتر اسمُه باب حصن سعدون ، بينما يجعلُ باب القوس (ويسميه باب الفرس ولعله هو الصواب) باباً آخر أنشأه ادريسُ بأول أغلان بين باب حصن سعدون (الكيسة) وباب الفصيل (النقبة) وعليه فيكونُ موقع باب القوس أو باب الفرس بآخر حومة فندق اليهودي أو بحومة البليدة .

باب السلسلة ـ ما زال هذا الاسم معروفاً مشهوراً بفاس وان اندثرَ البابُ منذ حوالي ألف سنة ، وكان البابُ في الأصل يدعا باب الفرج .

باب الشريعة ـ هو بابُ المحروق الحالي ، وقد سمّيَ كذلك في الأول ، لأن به كانت شريعة العيد ، أي المصلى الذي تؤدى فيه صلاة عيد الفطر وعيد الأضحى ، ثم سمّيَ بعدَ ذلك بباب المحروق (انضر باب المحروق) .

بابُ الشماعين - أحدُ أبواب القرويين الشهيرة ، ومنه يدخلُ ملوكُ المغرب الآن لصلاةَ الجمعة به . وهوَ منسوبٌ الى السوق الواقع أمامه وكان في الأصل يباعُ فيه الشمع ، ثم تحولَ الى سوق لبيع الفواكه اليابسة مثل الجوز والتمر واللوز والتين والزبيب ، ولكنه بدأ يتحول في السنين الأخيرة الى سوق لبيع الثياب .

بابُ الشيبوبة - أحدُ أبواب عدوة الأندلس كان يقع أمام باب الفصيل (النقبة) ، وقد اندثرَ البابُ وبقيَ اسمُ الحيِّ المضافِ إليه ، ذكرَ ابنُ خلدون ان موضعَ الشيبوبة كان عند تأسيس المدينة مستقراً لعبدةَ النار المجوس .

باب الوادي - أحدُ أبواب فاس كان يدخلُ منه الى القصبة الموحدية ربما كان هو الباب الواقع بين قصر البطحاء وباب الشمس الذي يدخل منه الى قصبة بوجلود ، أو باب الشمس نفسه .

بابُ يصليتن - عين يصليتن (ازليتن) حيٌّ شهيرٌ بفاس من عدوة القرويين ، والموقعُ الذي حدده له الجزنائي ينطبقُ على الحيِّ المذكور (بين باب الكيسة وباب المحروق) ولكن أحداً من المؤرخين غير الجزنائي لم يشرْ الى وجود هذا الباب ، وليس له أثر ظاهر في السور الذي لا يزال قائماً على حاله إلى الآن ، والراجحُ أنه كان باباً صغيراً مفضياً الى بعض دروب ذلك الحيِّ فتح فترةً قصيرةً من الزمان ثم أغلق ، لكن فتح منذ بضع سنوات بابٌ يفضي الى ذلك الحيِّ عندما شقَّ طريقُ المقطع الجديد بجبل العرض أسفلَ قلل بني مرين .

برج زيتون ابن عطية - هو برجٌ كان موجوداً بأعلا ارتفاع للسور الجنوبي لعدوةَ الأندلس، وقد بناه أميرُ المؤمنين يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 681 وكتب فيه اسمَه عندما أمرَ قاضيَه الفقيهَ أبا أمية ابن الدلاي بتجديد سور فاس الجنوبي فجدده من باب زيتون ابن عطية الى باب فتوح . وكان هذا البرجُ الجنوبي يقابلُ في الجهة الشمالية برجَ الكوكب، ولما شقَّ الطريقُ المعبدُ الحديثُ الرابطُ بين دار الدبيبغ وباب فتوح اقتضتْ الهندسة

أن يمرَّ الطريقُ وسطَ البرج المذكور فمرَّ وبقيَ طرفُه الأعلا الواقع عن يمين الطالع لباب فتوح منفصلا عن أسوار المدينة . وقد فقدَ هذا البرجُ أهميتَه عند ما أنشأ السلطان السعدي أحمدُ المنصور الذهبي بستيون باب فتوح الذي سماه الفرنسيون البرج الجنوبي Borj - Sud .

برجُ الكوكب - هو برجٌ كان يوجد بأعلا ارتفاع للسور بعدوة القرويين وبه يوجدُ الآنَ ضريحُ سيدي علي المزالي ، وقد استُغنيَ عن هذا البرج فيما بعد عندما أنشأ السلطانُ أحمدُ المنصور الذهبي أشهرُ سلاطين الدولة السعدية البرجَ العظيمَ المعروفَ ببستيون باب المحروق ، وهو الذي كان الفرنسيون يسمونه أيام احتلالهم لفاس البرجَ الشمالي Borj - Nord وأصبح بعضُ المتفرنسين يدعونه منذ ايامهم (برج النور) ظناً منهم ان كلمةَ النور عربية ، وهي لا تعني غيرَ الشمال باللغة الفرنسية .

بسرزخ - هو درب سيدي العواد الحالي (**سلوة الأنفاس** 1 : 307) .

تربيعة القراقين - سوق المركطان الحالي من قيسارية فاس .

جامع الأشياخ - هوَ أولُ مسجد أسس بفاس ، بناه ادريس الثاني برحبة البير ، وهذا المسجدُ هوَ الواقعُ اليومَ بأعلا عقبة الصفاح عند بداية طريق سيدي بوجيدة ، ويعرفُ بالجامع الأنور (جامع النور) .

حجرُ الفرج - مكانٌ واقعٌ بين عقبة الحبيل والجانب الغربي من طريق سيدي بوجيدة والنهر الكبير (وادي بوخرارب) ، وقد كان الى سنوات قليلة لا توجدُ به الا الحدائق والجنات ، ثم حولت الآن الى دور للسكنى وحوانيت للتجارة . وبرأس حجر الفرج أسس ادريسُ الثاني باب أبى سفيان الذي دعي فيما بعد باب بنى مسافر ، ثم باب سيدي بوجيدة .

الحرارين - سوق شهير بقيسارية فاس .

حوض السفرجل - ذكر الجزنائي ان هذا الحوض كان موجوداً بأعلا الوادي الكبير ، وفي ظني انه هوَ الذي أصبح يدعا فيما بعد بوعجارة وبورجوع .

دارُ القيطون - هيَ الدارُ التي بناها ادريس لسكناه بالمكان الذي ضرب به قيطونه عند ما نزل المحل المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين ، وكانت هذه الدارُ ملاصقة لمسجد الشرفاء الذي أنشأه ثم أقبر به لما مات ، وقد بقيتْ الدارُ مقراً للملك الى انقراض ملك الأدارسة من فاس ، كما بقيتْ مقراً للشرفاء الأدارسة بعد ذلك الى ان اخرجهم منها بنو مرين في عهد السلطان أبي الحسن أو ابنه السلطان أبي عنان وأنزلوهم في الدار التي بدرب السعود المحبَّسة على سكنى الضعفاء والمساكين ونفذوا لهم الصدقة التي تجبى لضريح سيدي علي بوغالب عوض صدقة المولى ادريس (**سلوة الأنفاس** 2 : 19) ، فهذه الدارُ واقعة اذن داخل الحرم الادريسي ، واليها تنتسبُ فرقة من الشرفاء الأدارسة يعرفون بالقيطونيين .

درب ابن حيون - درب شهير بحومة بوطويل أمام جدار جامع القرويين ، وكان في الأصل يعرفُ بدرب الغماري ، ذكر سيدي محمد بن جعفر الكتاني في **سلوة الأنفاس** (1 : 211) أنه منسوب لسيدي محمد بن علي ابن حيون الفاسي داراً الأندلسي أصلاً ، ووصفَ هذا الرجل بأنه كان من أهل الخير والدين والصلاح واليقين ، وأنه حبس كثيراً من الرباع على مسجد القرويين وغيره ، وكان يسكن بازائه بالدرب المعروف به .

وفي ظني ان ابنَ حيون المذكور هو محمد ابن حيون ناظر الأحباس الشهير في بداية القرن الثامن الهجري .

رابغة ابن الغرديس - وفي مختصر جنى زهرة الآس المحفوظ بالقصر الملكي تحت عدد 3535 زنقة ابن الغرديس ، وفي النسخة المطبوعة بالجزائر رائقة ابن الغرديس ، وفي ظني ان هذه الألفاظ الثلاثةَ اما أن تكون محرفة عن (رابطة) واما محرفة عن (تربيعة) ، وهذه التربيعة أو الرابطة هي الواقعةُ عن يمين الطالعِ مع عقبة السبيطريين ، وقد ذكرَ الجزنائي انها كانت معدة لمن تريد الدخولَ من النساء مستترةً عن أعين الناس للخصومة والتقاضي والأيمان ، ووجد على هامش النسخة المطبوعة بالجزائر ما يلي : رائقة ابن الغرديس هيَ الخربُ التي بها الخرازين الآن ، التي من حساب أحباس المرسطان واولاد الغرديس .

رحبةُ البير - هيَ الرحبةُ الواقعةُ أمام مسجد الأشياخ بأعلا عقبة الصفاح عند مدخل زنقة سيدي بوجيدة .

الرميلة - حيٌّ شهيرٌ بعدوة الأندلسيين ، ما زال معروفاً إلى اليوم بهذا الاسم .

الكذان - حيٌّ شهير بفاس ما زال يعرف إلى الآن بهذا الاسم .

كهف الوقادين - هوَ مكان بين المدن الحالي .

كُرنيز - حيٌّ شهير بعدوة القرويين .

كُرواوة - حيٌّ شهيرٌ بعدوة الأندلسيين .

المخفية - حيٌّ شهيرٌ بعدوة الأندلسيين .

مدرسةُ الرخام - هيَ المدرسةُ المصباحيةُ بحيٍّ بوطويل من عدوة القرويين ، بناها السلطان أبو الحسن المريني ، وكان أول مَن درس بها الفقيه مصباح بن عبد الله اليَلْصوتي المتوفَّى سنة 755 فنسبتْ إليه لأجل ذلك .

مدرسة الصهريج - مدرسةٌ مجاورة لمدرسة السبعيين قربَ جامع الأندلس بعدوة الأندلسيين .

المدرسة اليعقوبية - مدرسة الصفارين ، وهيَ أولى المدارس المنشأة بفاس .

المقرمدة - هيَ المكان الذي نزل به الإمامُ ادريسُ الثاني من عدوة القرويين وأنشأ به داره (دار القيطون) ومسجد الشرفاء الذي أقبِر به . فيه يقعُ الحرمُ الادريسي كله ، وقد اندثر هذا الاسم اليوم ولم يبق له وجود .

مسجد الدراس - معروفٌ بحومة مصمودة من فاس قربَ درب ابن بويكر ، يقال أن قبلتَه أقومُ قبلة بفاس .

مسجد الشرفاء - هوَ المسجدُ الذي به الضريح الادريسي .

نهر الجوهر - انظر وادي الجواهر .

عقبةُ الجرف - الجرف هوَ المرتفع المطلّ على حومة العيون والوادي الكبير (بوخرارب) حيثُ ضريحُ سيدي أحمد الشاوي ، والعقبات التي تُفضي إلى هذا المرتفع ثلاث ، عقيبة الفيران ، وزنقة الرطل ، وعقبة ابن صوال ، فلا شك أن واحدة من هذه العقبات كانت تدعا عقبةَ الجرف في الأول .

عقبة الملاحين - وسماها ابن أبي زرع عقبة الدخان ، وهيَ واقعةٌ بين حومة كُرنيز وجامع القرويين ، وبها تمرُّ قواديس الماء إلى ميضأة جامع القرويين مارةً بمسجد الشرفاء ، والقيسارية ، فلا شك أنها عقبة سيدي موسى .

عقبة عين علون - هي عقبة الشرابليين (انظر عين علون) .

عين جرمال - عينٌ توجدُ بدرب سيدي موسى قرب دار الدبغ ومنها يذهبُ الماءُ إلى ميضأة القرويين ماراً بمسجد الشرفاء والقيسارية . وقد كتب الاسمُ في كتب أخرى عين فرمان عين فرمال وعين حرمال ، وسمَّى ابنُ أبي زرع هذه العين عين خومان (ص 45).

عين دوردور - كذا كتبتْ في النسخة الملكية ونسخة دار الكتب المصرية والنسخة المطبوعة بالجزائر ، وكتبتْ في القرطاس عين دردورة، وفي النسخة الملكية المختصرة عين دروة ، وقد جعلوا موقعَ هذه العين بين رأسَ عقبة عين علون وعقبة الصعتر ، ولا تعرفُ اليومَ عينٌ هناك بهذا الاسم ،.ويغلبُ على ظني أنها عينُ الخيل الحالية أشهرُ عيون تلكَ الجهة وأغزرها ماء .

عين علون - عينٌ شهيرة بفاس واقعة أسفل عقبة الشرابليين واليها ينسب الشارع الممتد إلى العطارين ، ذكرَ المؤرخون إنها كانت عيناً تحيطُ بها أشجارُ الطخش والعليق والكلخ والبسباس وأشجار برية أخرى ؛ وكان الناسُ قبلَ بناءِ المدينة يتحاشونها ولا يمرون بها لالتفافَ أشجارها وهدير مياهها وأنهارها ووعورة مسالكها وكثرة الوحوش المؤنية بها ، ووجود

عبد أسود اسمه علون يقطع الطريق بها . كما كان الرعاة يتجافونها بمواشيهم ولا يسلكها الناسُ الا جماعات . فأنهِيَ الى ادريس الثاني خبرُ علون المذكور حين شرع في بناء عدوة القرويين ، فأمرَ بالقبض عليه ، فخرجت الخيل في طلبه وقبضوا عليه وأتوا به إلى ادريس فأمر بقتله ، فصُلب على شجرة كانت على رأس العين ، فبقيَ مصلوباً حتى تقطعتْ أحشاؤه وتمزقت أوصاله فسميت العينُ باسمه منذ ذلك الحين .

وقربَ هذه العين أنزل الامامُ ادريس جماعات من الفرس وردوا عليه من المشرق ، ومنهم بنو ملونة أحد بيوتات فاس في القديم ، وكانت حومتهم تمتد يميناً إلى أول أغلان حيث فتحَ ادريسُ هناك باباً سمي باب الفرس (عند الجزنائي باب القوس).

عين عمير - هيَ العينُ التي نزل عليها عمير بن مصعب الأزدي وتوضأ منها وصلى بأصحابه حولها عند ما أرسله ادريس الثاني يرتادُ له موضعاً صالحاً لبناء عاصمة للدولة . وما زالتْ معروفة بهذا الاسم إلى اليوم، وهيَ واقعةٌ في الجنوب الغربي من فاس الحديثة العليا غير بعيدة عن القصبة المعروفة بدار الدبيبغ .

عين قرقف - ذكر الجزنائي وابن أبي زرع أن ماءَ خصة القرويين ينصرف إلى ميضأتها واشار الى انها واقعة في جوفي الجامع المذكور ، لعلها عين سيدي طلوق .

عيونُ ابن الصادى - وفي مختصر جنى زهرة الآس المحفوظ بخزانة القصر الملكي عيون الصادي ، وفي القرطاس عيون ابن اللصاد : عيون ماء بعدوة القرويين ذكر الجزنائي أن ادريسَ الثانيَ فتحَ قربَها باباً سماه باب الحديد ، وهوَ غيرُ بابِ الحديد الحالي ، وقد ذكر الجزنائي أن تلك العيونَ تعرف في وقته بعيون الكزارين (أو الكرازين على ما في بعض النسخ ، أو الكوزيين على ما في القرطاس) عندما تكلم على باب القرويين المدرج الذي يفضي إلى رحبة الصفارين وجلب الماء لباب الحفاة به من العيون المذكورة ، ولا تعرفُ اليومَ عيون بفاس تحمل هذه الأسماء ، والظاهرُ انها كانت بحومة (العيون) الحالية .

فحص سايس - هوَ السهل الممتدُ بين فاس ومكناس والواقعة فاس في أقصى طرفه الشرقي ، وهوَ معروف بهذا الاسم إلى اليوم .

فندق ابن حيون - فندق شهير بفاس ملاصق لدرب ابن حيون من حومة بوطويل بعدوة القرويين .

قنطرة ابن أبي برقوقة - تعرفُ اليوم بقنطرة الرصيف ، ومنها يدخل إلى حومة المخفية عبر (جزاء برقوقة) ، وقد جدد هذه القنطرةَ السلطان أحمد بن محمد البرتغالي رابعُ سلاطين بني وطاس ، وفي تجديدها يقول سيدي عبد الواحد بن احمد الونشريسي وكتب في مربعة هنالك :

جسرُ الرصيف أبو العباس جدده فخرُ السلاطين من أبناء وطاس
فجاء في غاية الاتقان مرتفقا لمَن يمرُّ به من عدوتَي فاس
وكان تجديده في نصف عام (غنى) من هجرة المصطفى المبعوث للناس

قنطرة أبي الرءوس - حيٌّ وشارع شهيران بعدوة القرويين .

قنطرة بوطوبة - هيَ قنطرة باب الجديد ، جدد بناءها أبو سعيد المريني .

قنطرة الرميلة - كانت تقعُ في نهاية حومة الرميلة من جهة الشرق ، وقد جرفها السيلُ العظيمُ سنة 725 فلم تجدد مثل سائر القناطر التي حملها السيل ، أما سببُ اهمال بنائها فقد ورد بيانه في العبارة التالية التي ألحقت بمختصر **جنى زهرة الآس** :

(وبقيتْ قنطرة الرميلة إلى الآن لم تبن ، وأرجو من الله أن يكونَ ادخرها لهذا الملك المبارك السعيد ؟ ويجعلها من حسناته التي يبقى أثرها ويضاعف أجرها ، فانها من الحسنات الطويلة الامتاع ، الكثيرة الانتفاع ، وسببُ اهمال الأمراء لبنائها أن أسوار المدينة لما رتب فيها الحفارُ والسمار في أيام المخاوفة وأول هذه الدولة المرينية أبد الله ملكها خرجَ سورُ الرميلة في قسط اليهود لعنهم الله واشتهرَ ذلك بينهم ، فلما تهدمت هذه القنطرة أشاعَ

اليهودُ ان بناءها عليهم حسبما عليهم حفارة السور ليغتنموا أنِ يكون أثرها لهم ويحرموا المسلمين من أجرها ، ولم يستطع اليهودُ المبادرة لبنائها وقبح على الأمراء أن يكلفوهم ببنائها خوفَ أن يبقى اثرها لهم فأهمل النظرُ فيها بسبب ذلك ، هكذا تلقيناه من جملة شيوخ فاس) .

قنطرة كهف الوقادين - هيَ قنطرةُ بين المدن الحالية . حملَها السيلُ سنة 725 وتطوعَ ببنائها على شكلها الحالي جماعة من المحسنين .

قنطرة الصباغين - تعرفُ اليومَ بقنطرة الخراشفيين ، وقنطرة سابِاط الهيادريين وقنطرة جراء ابن زكون ، وقنطرة الصباغين جرفَها السيلُ سنة 725 وبناها في شكلها الحالي السلطان أبو سعيد المريني .

قنطرة عديلة - أو قنطرة عزيلة على ما في بعض النسخ ، لا يعرفُ اليومَ مكان بهذا الاسم بفاس ، يربطها بعضُ المؤرخين بقصة تمثال الجارية الذي عثر عليه اثناء احتفار اساس دار بها (انظر صفحة 23) .

قنطرة باب السلسلة - هيَ المعروفةُ اليومَ بقنطرة الطرافين وقنطرة سيدي العواد ، وقد كان السيلُ هدمها سنة 725 فجددها السلطان أبو سعيد المريني .

قصبة الوادي - هي قصبةُ بوجلود الحالية ، كانت في الأصل معسكراً للمرابطين عندما استولَوْا على فاس ، ثم بناها الموحدون بعدهم وأصبحت مسكنَ ولاتهم ومركزَ إدارتهم ، ولما استولى المرينيون على فاس سكنها ملوكُهم الأولون قبل بناء دار الملك بفاس الجديد ، وظلوا حتى بعد تأسيسِ قصورهم يترددون عليها للإقامة بين الفينة والأخرى .

القوراجة - مكان واقع بين باب الجيسة وباب يصليتن (ازليتن) بنى سوره عليُ بنُ يوسف بنِ تاشفين ، ولا يعرفُ اليومَ هذا الاسم .

القيسارية - والأصل القيصرية : سوق بيع الثياب . بناها إدريس بجوار داره (دار القيطون) ومسجده (مسجد الشرفاء) بحومة المقرمدة بفاس ، ولا تزالُ حيث بناها إلى الآن .

الساحل - رصيف الوادي من جانبيْه من جهة حومة بو عجارة وحومة بورجوع.

ساقية مصمودة - انظر واديَ مصمودة .

السبع لويات - درب شهير بفاس مجاور لجامع القرويين .

سماط الموثقين - يعرف بسماط العدول ، وبالعدول فقط ، وقد ظلّ به الموثقون الى أن نقلوا منه منذ سنين قليلة .

سور زيتون ابن عطية - هو السور الممتد من باب الحمراء الى (نصف قالة) حيث مدخل الوادي الى فاس، ويعرف الوادي هناك الى اليوم بوادي الزيتون .

سوق القراقين - انظر تربيعة القراقين .

سوق الشماعين - سوقٌ شهير بفاس بين جامع القرويين والضريح الادريسي ، كان في الأصل سوقاً يباع فيه الشمعُ كما يدلُ عليه اسمُه ، ثم تحول الاتجارُ في الشمع الى باب مولاي ادريس وأصبحَ سوقُ الشماعين خاصاً ببيع الفواكه الجافة مثل الجوز واللوز والتمر والزبيب والتين ، وفي هذه السنين الاخيرة بدأت حوانيته تتحول الى حوانيت لبيع الثياب بالجملة والتفصيل .

الشيبوبة - مكان بعدوة الأندلسيين أنشأ به ادريس الثاني باباً كان يقابل بابَ الفصيل (النقبة) من عدوة القرويين ، وما زال المكان المذكورُ معروفاً بهذا الاسم الى الآن بين قنطرة بين المدن والحدادين . وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه (4 : 26) ان موضعَ الشيبوبة كان بيتَ نار لمجوس البربر ، فلعل (كهف الوقادين) الذي هوَ (بين المدن) الحالي له ارتباط بالنار التي كانت توقدُ هناك .

وادي الجوهر - ويقال وادي الجواهر ، هو (وادي فاس) ينبعُ من فحص سايس على بعد 14 كلم من فاس ، ثم يأتيها ويدخلها ويتخلل أحياءها ودروبها ممداً بمائه مساجدَها وحماماتها ودورَها وفنادقَها وسقاياتها ومرافقها العمومية . ثم كانت تبقى منه بقية تخرجُ في ساقية من جهة باب الخوخة فتسقي جميعَ البساتين والحدائق الموجودة هناك الى قرب نهر سبو .

وقد أطلعني الفقيه السيد عبد السلام ابن سودة رحمه الله على وثيقة منقولة بخط جده السيد المهدي الفاسي وردَ فيها أن واديَ فاس انما كان بأجمعه هابطاً ما بين باب الجديد وباب الفرج (السلسلة) ولا شيءَ لعدوة الأندلس فيه إلا السقي ، ولم يكن موضع المخفية والقلقليين وبعض رأس الجنان وبعض العيون من المدينة بل خارجاً عن السور وليس من حسابها ، ولما اكتست المدينةُ الحضارة باجراء الماء الحلو الى كل دار ورفع الماء لعدوة الأندلس وذلك بأمر يوسف بن تاشفين صار القلقليون والمخفية وما ذكر قبل كله على السقي وكذلك خارج باب الجديد بأجمعه ، فصار الناسُ من عدوة الأندلس الذين كانوا مستقلين عن الماء كأهل الباب الحمراء وتامدرت وباب بني مسافر يبنون بالجهات الواقعة على الماء بنحو المخفية والقلقليين ، وصار مَن ورد من الأندلس انما يبني بنحو المخفية والقلقليين ، وعليه فالمخفيةُ من عدوة الأندلس قطعاً ، كالأقواس والكذان والرميلة ، وما كان من باب الفرج الى الجرف الى الباب الجديد يميناً فهو من عدوة القرويين قطعاً ، والسور زيد فيه وغير ، والكلامُ انما هوَ في القلقليين وبعض رأس الجنان وبعض العيون ، فمن نظر الى مصب النهر قبل يوسف بن تاشفين وقد كان بين باب الجديد وباب الفرج فلا يصفهم بأنهم أهل عدوة القرويين، بل يضيفهم لعدوة الأندلس ، ويقطع النظر عن الشعبة التي بين الناحيتين ، ومَن نظرَ لمبدأ مجرى الماء المضاف بعد فعل يوسف وهو قبل باب الجديد بل وعليه حكم بأنهم لعدوة القرويين ، والظاهرُ عدمُ الجزم للتعارض .

وادي حسن - لايعرفُ اليوم واد بهذا الاسم بفاس ، كان بأعالي عدوة القرويين ، ربما كان الواديَ المعروفَ اليوم بوادي الفجالين .

وادي مصمودة - ويقالُ أيضاً ساقية مصمودة - نهير مار بعدوة الأندلسيين منسوب الى القبيلة التي سكنتْ هناك عند تأسيس المدينة .

فهرس الموضوعات

صحيفة

صحيفة

صحيفة

فهرس الاعلام الشخصية (1)

ـ أ ـ

---

1) لم يثبت في هذا الفهرس اسم (ادريس) لكثرة وروده في جل صفحات الكتاب .

- ب -

- ت -

- ج -

- ح -

- ز -

- ط -

- ظ -

- ك -

- ل -

- م -

- غ -

- ف -

- ق -

- س -

- ش -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرسُ الأعلام الجنسية

- أ -

- ب -

- ت -

- ج -

- غ -

- ق -

- س -

- ش -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس
الاعلام الجغرافية والمحلية (1)

- أ -

- ب -

---

1) لم يثبت في هذا الفهرس الأعلام التي تتكرر بكثرة كفاس وعدوة الأندلس وعدوة القرويين .

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- ط -

- ك -

- ڤ -

- م -

- ن -

- ص -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- س -

- ش -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الكتب

ـ أ ـ

ـ ت ـ

- ط -

- م -